نور سطع في الظلام

درامـــا

تأليف

ليو تولستوى

ترجمها وقدم لها

أحمد حسين

مطبعة مصر شركة مساهمة مصرية
١٩٦٢

الإهداء

إلى : الشهيد مصطفى الوكيل رمز الحب والوفاء

وإلى كل إخوانى الذين عاشوا معى فى الحب وبالحب .

إلى : عالم واحد يسوده السلام . . .

وإنسانية واحدة تعيش فى ظل الحب والإخاء .

أهدى هذه الترجمة

تمهيد وتعريف بالرواية

- **لماذا اخترت أن أترجم لتولستوى ؟**
- **لماذا اخترت رواية نور يسطع فى الظلام ؟**
- **ما هى مبادىء تولستوى كما صورها فى هذه الرواية ؟**

لماذا اخترت أن أترجم لتولستوى

لابد أن عمرى لم يكن قد تجاوز العاشرة عندما قرع اسم تولستوى أذنى لأول مرة ، فقد كنا فى ذلك الوقت لا نزال نقيم فى حارة الجمالة بحى طولون الذى غادرناه الى حى السيدة عام ١٩٢١ ، ولما كنت من مواليد ١٩١١ فان عمرى لا يمكن أن يكون قد تجاوز العاشرة ابان اقامتنا فى طولون . ولك أن تتصور ما الذى يعنيه وصول اسم تولستوى منذ حوالى أربعين سنة الى حى من الأحياء الوطنية ، بل و « البلدية » فحى طولون كان لا يسكنه فى ذلك الوقت الا أولاد البلد ، وقد اشتهر بالفتوات وبالمعارك الدامية التى تجرى على سفوح وفوق قمم تلاله .

ومع ذلك فقد وصل اسم تولستوى الكاتب والفنان والفيلسوف الروسى ، الى أزقة طولون ، والى حارة الجمالة على وجه التحديد ، ليقرع أذن صبى صغير لم يتجاوز العاشرة ، وما فتىء الاسم يدوى فى نفسى منذ هذا التاريخ ، ولا تزال هذه الصورة الغامضة التى كانت السبب فى ذكر الاسم أمامى مرتسمة فى خيالى حتى الآن . لقد وجد الصبى كتابا ذا غلاف أحمر على احدى المناضد ، ولاحظ على غلافه كلمة لم يستطع قراءتها ، فقال له أخوه الذى يكبره ، هذا

كتاب عن حياة تولستوى . ثم أردف الأخ قائلا : هل تعرف أن تولستوى هذا بالرغم من مسيحيته ، فقد كتب أروع الكتب عن سيدنا محمد ! فامتلأ الصبى حبا لهذا الكاتب المسيحى الذى عظم نبى المسلمين وظلت هـذه الفكرة تملأ رأس الصبى ، أو بالأحرى رأسى أنا حتى كبرت وبدأت أسمع الحديث عن تولستوى من حين لآخر ، فأردد هذه العبارة التى وعيتها منذ الصغر ، فلم أجد أحدا يردنى أو يخالفنى فى هذه الفكرة ، حتى جاء الوقت الذى أصبحت فيه من عشاق تولستوى وبحثت عبثا عن هذا الكتاب الذى ألفه عن سيدنا محمد فلم أجد له ذكرا فى مؤلفات الرجل ، وان وردت اشارات عن الاسلام هنا وهناك تدل على دراسته له وقد أتيح لى أن أقرأ الكثير من رواياته ، أما مؤلفاته الأخرى والتى كتبها فى الدين والفلسفة وفى شرح مبادئه ، فلم أطالعها حتى الآن . وقد يكون تحدث فى بعض هذه الكتب حديثا مسهبا عن الاسلام ، ما دام كان معنيا بدراسة الأديان والوقوف عند القدر المشترك فيها ، وهو الايمان بالله السبب الأول لهذا الكون .

على أن الذى يعنينى من ذلك كله هو أن اسم تولستوى قد قرع سمعى منذ طفولتى على هذه الصورة المحببة من أنه مسيحى يشيد بالاسلام ، فتعلق به قلبى منذ ذلك التاريخ ، وكأنه كان قدرا قد خط فى اللوح المحفوظ ، فهأنذا بعد أربعين سنة من ذلك التاريخ ، وقلبى متعلق بتولستوى أشـد التعلق ، لا نتيجة حديث عابر ، أو نتيجة فكرة خاطئة ، ولكن بعد تحقيق ودراسة ، ومطالعة لمؤلفات الرجل الكبرى ، التى جعلتنى أطالع أفكارى فى أفكاره ، وآرائى فى آرائه ، وجعلت قلبى يخفق مع خفقان قلب هذا الرجل ، والعجيب أن هذه الصلة تطورت على مر الأيام وكان يغذيها فى نفسى ، حوادث وأحاديث أشخاص آخرين ، دون أن يكون لمطالعاتى أثر فى تطور هـذه العلاقة . فقد كان لى صاحب وثيق الصـلة بى من عشاق تولستوى ، وكان يكثر من الحديث عنه والتغنى بروحه وآثاره ، فكنت أتابعه فى آرائه ، دون

أن يكون لى علم عن تولستوى الا هذه الجملة العابرة التى قيلت لى فى طفولتى من أنه ألّف كتابا عن محمد .

ثم كانت السينما الصامتة عندما أقدمت على اخراج الروائع الأدبية ، فأخرجت رواية « أنا كارنينا » التى تعتبر أجمل قصص تولستوى وأكملها من حيث كونها قصة ذات وحدة ، ومن حيث تجلى عبقريته الفنية ، فى الوصول الى أغوار النفس البشرية وتسجيل أدق وأخفى ما يدور خلالها ، وقدرته على تصوير كل ما يحيط به من مظاهر الطبيعة المادية والمعنوية . وقامت بتمثيل أنا كارنينا الممثلة الخالدة جريتا جاربو ، وشاهدت الفيلم مرة وأخرى وثالثة وفى كل مــرة بكيت وبكيت وتألمت ، وخرجت مشدوها ازاء روعة تمثيل جريتا جاربو . وعظم تولستوى فى نفسى ثم عظم . ان الرواية السينمائية كما اتضح لى فيما بعد لا تحمل سوى قصة أنا كارنينا ، أما فلسفة تولستوى التى بثها فى ثنايا الكتاب ، أما أفكاره وآراؤه ، فليس باستطاعة فيلم سينمائى أن يبرزها أو يصورها ، ومع ذلك فقد خرجت مفتونا بالفنان الذى استطاع أن يبدع مثل هذه القصة . وما أكثر القصص التى نراها فى السينما وكلها تتشابه من حيث الحوادث المتلاحقة ومع ذلك فان الانسان يستطيع أن يدرك على الفور عظمة المؤلف وعمق تصويره للشخصيات ، وجبروته الروحى ، والعقلى ، لمجرد رؤية روايته على السينما ، حتى لو كانت صامتة .

ولقد أحدثت أنا كارنينا هذا الأثر فى نفس كل من أتيح له أن يشهدها فى ذلك الوقت ، فخرج مبهورا من عظمة الاخراج وروعة الأداء وحنى رأسه اجلالا للمؤلف .

الفنـــان العبقرى

وهكذا استمرت صلاتى بتولستوى ، مجرد صلات سطحية لا تعدو كلمة عابرة ، أو حديث صديق عنه ، أو مشاهدة رواية سينمائية منسوبة اليه .

وقد ظل هذا شأني مع تولستوى ، حتى كبرت وخرجت الى الحياة العامة ، وزجت بى ظروف الجهاد السياسى الى السجن ، وفى السجن لأول مرة طالعت رواية أنا كارنينا بالانجليزية . واذا كانت القصة السينمائية قد استهوتنى مائة مرة ، فقد سلبت القصـــة المكتوبة لبى ألف مرة وبدأت أتذوق عظمة تولستوى كفنان وهو يصور كالعملاق كل ما يقع عليه بصره وسمعه وحسه ، وهو اذ يصور بالقلم ، لا يقف عند حد الصورة الخارجية كما يفعل أى فنان يستخدم الفرشاة والألوان ، ولكن تولستوى ينفذ الى الأعماق ، فيصور الباطن بأدق مما يصور الظاهر ، بل انه ليصور النفس والروح معا فيرى الانسان النفس البشرية على حقيقتها ، يراها بكل خلجاتها وآلوانها وانحرافاتها ، وشرها وخيرها ، وفسادها وطهرها ، فلا يسعه وقد رآها الا أن يرى نفسه فيها ، ولا يسعه الا آن يشعر بالحب والعطف والحنان لكل نفس تتعذب لأنها ليست فى الحقيقة الا نفسه ، فأنا كارنينا ليست سوى زوجة رجل شريف ولكنها تلقى بنفسها بين أحضان الحب ، فتهجر زوجها وبيتها وتتخلى عن أولادها ، وتهرب مع عشيقها الذى حطمت حياته ومستقبله بدوره ، وينتهى بها الأمر الى الانتحار بأن تلقى بنفسها تحت عجلات القطار فتموت أشـــنع ميتة [1] . وحياة مثل هذه المرأة التى ثارت على كل قوانين المجتمع قمينة أن تحملنا على احتقارها أو استهجان تصرفها ، ولكن عظمة تولستوى تتجلى فى حملنا على العطف والاشفاق عليها ، وذرف الدموع لآلامها كما لو كنا نتألم لقديسة أو شهيدة ، ذلك أن أنا كارنينا كما صورها تولستوى ليست سوى نفس بشرية ، ليست سوى نفسى ونفسك بكل ما فيها من ضعف هو أخص خصائص النفس البشرية .

---

(١) ليس الانتحار تحت عجلات القطار من خيال تولستوى ولكنه حادث حقيقى وقع فى بلدة مجاورة لبلدته وقد كان هذا الحـادث هو الذى أوحى له بكتابة رواية أنا كارنينا .

هكذا كشف تولستوى عن النفس البشرية ، وأظهر الوحدة التى تجمعها ووصل فى ذلك الى الذروة التى أحسب أنه لم يوجد من يدانيه فيها . لقد طالعت لمؤلفين كثيرين ومن بين هؤلاء المؤلفين من استطاع أن يمسك بشغاف قلبى استمتاعا بما كتب ، وكثيرون هم الذين تأثروا بفن تولستوى الواقعى أو لعلهم اهتدوا اليه من تلقاء أنفسهم ومع ذلك فسيبقى تولستوى فى قمة لا يساويه فيها أحد غيره . فهو لا يقف عند عرض النفس البشرية بذمة وأمانة ، وهو لا يقف عند اضاءة خوافيها وحل كل تركيب فيها ، ولكنه يزيد على ذلك أنه يحببنا فى هذه النفس ، ففى روايات تولستوى لا ننقم على الشرير اذا ارتكب الشر ، ولكن نعطف عليه ونرثى لحاله ، لأننا نرى الأسباب والدوافع التى دفعته الى ركوب هذا المركب الخشن ، وكيف أنه فعل ويفعل بقوة قاهرة تغلبه على أمره ، فلم يعد يستحق منا سوى الرثاء والمغفرة .

من هنا بدأ تولستوى الفنان يستولى على مكانته فى نفسى من خلال مطالعة روايته أنا كارنينا ، فنانا عبقريا وقصاصا من أعظم من عرفت وطالعت لهم .

الاشتراكية التى ندعو اليها :

وتطورت بنا الأيام ، وتطور معها جهادى الفكرى وأخذ الطابع الاشتراكى والذى يقوم فى الدرجة الأولى فى مصر على تمليك جموع الفلاحين للأراضى التى يعملون عليها ، وسرعان ما برز صاحبى تولستوى فى الميدان ، فقد كان تولستوى من أول الدعاة لتوزيع الأرض على الفلاحين ، والنقمة على الملاك الذين يستغلون كدح الكادحين ، ويعيشون على ثمرة عمل الآخرين .

واتسمت اشتراكيتنا التى دعونا اليها بطابعين تفرقها عن الاشتراكية العلمية أو بالأحرى اشتراكية كارل ماركس . أما الطابع الأول فهو ايماننا بالله فنحن اشتراكيون نؤمن بالله ، ولا نرى ثمة تعارضا بين أن يكون الانسان اشتراكيا ،

يعمل على احسان توزيع الثروة بين الناس ، وعلى تأمين كل انسان على ثمرة كده وبين الايمان بالله ، بل نحن نعتقد أن الايمان بأصل واحد يسوى بين الناس أجمعين ، هو الأساس الذى نبنى عليه اشتراكية صحيحة ، ولهذا لم نر تعارضا بين الايمان بالله والاشتراكية بمعنى توزيع الملكية والمساواة بين البشر .

أما الطابع الثانى لاشتراكيتنا التى دعونا اليها ، فهو البعد عن العنف فى تحقيقها ، وقد كان هذا جامعا يجمعنا مع تولستوى ، فقد كان الرجل يدعو للاشتراكية فى حدود تمليك الأرض لزارعيها وعدم استغلال كد الآخرين ، وفى ذات الوقت يكره العنف ويندد بمرتكبيه .

وعلى ذلك فقد بدأت أطالع ما يقع فى يدى من مؤلفات تولستوى فأستمتع بها استمتاعا مضاعفا . فكنت لا أقف عند حد القصة والاعجاب بتركيبها الفنى ، وانما أستمتع فوق ذلك بآرائه المبثوثة خلال القصة والتى تدور حول الدفاع عن الفلاحين والطبقات المعذبة .

وعلى ذلك فقد أعدت مطالعة أنا كارنينا من هذه الزاوية ، ورواية البعث التى تدور فى الدرجة الأولى حول الأرض وتوزيعها ومحاولات تولستوى فى هذا الصدد .

مع تولستوى فى السجن من جديد ــ رواية الحرب والسلام :

وقبض علىّ فى حادث حريق القاهرة عام ١٩٥٢ [١] ، فكان أن طلبت روايات تولستوى كلها ، بل لقد كلفت زوجتى أن تذهب الى مكتبة الانجلو وأن تحضر لى من هناك كل ما يمكن أن يوجد عندهم من روايات تولستوى المترجمة الى الانجليزية .

---

(١) راجع كتابينا « فى ظلال المشنقة » ، و « قضية التحريض على حرق مدينة القاهرة » .

ولقد كان ، وجاءنى أكثر من عشرة مجلدات لا تزال موجودة على مكتبى حتى الآن ، وأنا أخط هذه السطور ، وهى كلها من مؤلفات تولستوى . وكنت أتوق فى الدرجة الأولى لمطالعة روايته عن « الحرب والسلام » فكثيرا ما حدثنى صاحبى عن هذه الرواية وانها أعظم روايات تولستوى . ولكن اسمها الغريب « الحرب والسلام » والذى يبدو أقرب ما يكون الى أسماء المؤلفات الفلسفية منه الى أن يكون عنوانا لقصة ، قد خفف من حماستى لمطالعتها . والحق أن مشاغلى العديدة فى ذلك الوقت التى كانت تفرضها علىّ ظروفى الخاصة ، لم تجعل لدى فراغا للمطالعة وقد كان السجن دائما هو فرصتى الوحيدة لهذه المطالعات ، فلم أكد أستقر فى سجن كنت أعرف أنه سيطول ، وأرى أمامى روايات تولستوى حتى أقبلت عليها بنهم وشره ، وكانت رواية الحرب والسلام بأجزائها الثلاثة هى فريستى الأولى . ويالها من رواية ، بل أنه من الظلم أن تسمى رواية ، ولقد أدركت الآن فقط لماذا لم يطلق عليها تولستوى عنوانا يقربها من عناوين القصص والروايات . ذلك أن تولستوى لم يكن يكتب رواية ، ولم يكن يهدف الى كتابة قصة يسلى بها الجمهور ، وانما كان يكتب تاريخ أمة فى حقبة من أخطر الحقب فى تاريخها ، بل كان يؤرخ لأوربا كلها وللبشرية فى الصدر الأول من القرن التاسع عشر . وقد تلخص هذا التاريخ فى رجل وهو نابليون ، فأراد تولستوى وهو يؤلف قصة عن الشعب الروسى وكفاحه ضد الغزو أن يكتب عن نابليون وأن يحلل شخصيته ويزن أعماله ويردها الى أصولها الطبيعية ، فكان كتابه الحرب والسلام والذى يعد من أعظم ما كتب فى عالم القصص والروايات بل أن البعض ليقول عنه أنه أعظم قصة كتبت على الاطلاق ولا يجدون لها شبيها أو ضريبا الا فى الياذة هوميروس حيث تحدث عن تاريخ شعبين وتلاحمهما فى حرب . وعندى كما قلت أنه من الظلم أن تسمى « الحرب والسلام » قصة ، فقد كان الرجل يصور مجتمعا بأسره ، كان يرسم شعبا ويحول أمة

ضخمة بثروتها وقوتها وضعفها وأحلامها وأمانيها وآلامها ، وكبارها وصغارها ، وحيواناتها وثلوجها وشمسها وحرها وهوائها وأنهارها وبحارها وعواطفها ، الى كلمات يسطرها على القرطاس ، لكي يطالعها أي انسان في أي زمان ومكان فاذا به يعيش مع الروس حيث عاشوا في الأعوام التي سبقت الغزو النابليوني والتي عاصرته . وقليلون هم الذين يعرفون لماذا بلغ مخرج رواية الحرب والسلام في السينما [1] « كنج فيدور » القمة ، ذلك أن المؤلف لم يترك شيئا لاجتهاده ، لم يكن عليه الا أن يحاول تحقيق ما رسمه المؤلف ، والذي لم يدع مجالا للخيال أو اعمال الفكر وهو يحاول ابراز معركة من المعارك ، ذلك أن تولستوي كان يصف الخيل ، كان يصف الزبد وهو يملأ شدقيها اذ تعض على اللجم ، كان يصف الذباب وهو يحط على الجروح ، كان يصف قصف المدافع ، ودق الطبول وأنين الجرحى ، وكان يصف ما هو أدق من ذلك كله وأخفى والذي لا يفعله الا تولستوي ، كان يصف ما يدور في أعماق نفس كل ضابط وكل عسكري وكل قائد وكيف يفكرون في ساعة المعركة ، في أمور أبعد ما تكون عن المعركة التي ستقرر مصيرهم ومصير بلادهم .

يصف تولستوي في رواية الحرب والسلام ، بلاط الكسندر قيصر روسيا وما يجري فيه في ساعة من نهار ، ثم ينقلك الى بلاط نابليون في نفس الساعة وذات اللحظة فيخيل اليك أنك تعيش في البلاطين معا ، وأنك أصبحت كالرب والاله تطلع على خائنة الأعين وما تخفي الصدور . وتولستوي يحول لك كل

---

(١) أقدمت هوليوود في عام ١٩٥٧ على اخراج رواية الحرب والسلام بعد سنوات من التردد والتهيب ، ثم العمل المتواصل ، وقد اعتبرت أعظم قصة ظهرت على شاشة السينما ، واحتاج عرضها الى ثلاث ساعات ونصف ، وقد كان جميع رواد السينما يخرجون مذهولين من عظمة الاخراج وضخامة القصة وعرضها لحروب نابليون ومواقعه بصورة لم يسبق لها مثيل .

ما تراه العين الى كلمات على القرطاس ، فالماريشالات والنبلاء والوصيفات والخدم وما يجرى بينهم من أحاديث ومؤامرات ومناورات ، وما يقدم على مائدة الطعام ، وما يتهامس به الجند ، وما تحدثه الفراشات والعصافير والطيور والكلاب والرياح والليل والنهار والشمس والكواكب والقمر ، كل ذلك يرسمه تولستوى ولا يدع شيئا لخيالك ، انه يقرب لك الحياة ، يقرب لك الدنيا ، يجمعها لك فى كتاب ، وهذه هى قصة الحرب والسلام ، أو بالأحرى ملحمة الحرب والسلام . ويقف تولستوى جبارا عملاقا وهو يزن نابليون بميزانه الصحيح ، وانه ليس سوى ظاهرة من ظواهر الطبيعة والتاريخ ، فقد كان مقدرا ، أن تفد هذه الموجة من الغرب لتجتاح الشرق ، لتخرب وتدمر وتقتل وتشعل النيران وتنشر الآلام أنى راحت وحيثما اتجهت . وتصل الموجة الى ذروتها بالوصول الى موسكو . ثم يشاء القدر أن تنحسر هـذه الموجة فتعود أدراجها من حيث بدأت ، وتأتى على أعقابها موجة جديدة من الشرق ، تصل الغرب ، أى الى باريس . فلم يعد الأمر أن يكون مدا أو جزرا مما يحدث فى الطبيعة دائما . وهذا الذى حدث قد تم بقوى التاريخ اذا شئت أن تسميها ، أو بقوى القضاء والقدر لغاية لا يعلمها الا مدبر هذا الكون الأعظم . أما التحدث عن عبقرية نابليون وبطولته ، وانها كانت السبب فى كسبه ما كسب من معارك ، فكل هذا عبث وهراء ، والا فأين ضاعت هذه العبقرية وهذه المهارة ، وهذا الفن فى ادراك ما كان مقدرا أن يقع له فى روسيا . لقد رسم نابليون لنفسه أكثر من خطة ليلتزمها فى معركة روسيا فاذا بالحوادث تخرجه عما اعتزمه ورسمه . كان يقدر أن يمضى الشتاء على حدود روسيا ، ولكنه جذب الى داخلها ، كان يقدر أن يمضى الشتاء فى سمولنسك ولكنه جذب الى موسكو . كان يقدر أن يمضى الشتاء فى موسكو لكنه لم يلبث أن ارتد عنها . وهو فى ذلك كله كان يقرب نهايته الفاجعة والتى كانت محتومة ومقدرة ، ولم يكن هناك سبيل للفكاك من عجلة الحوادث . وعندما قرر

نابليون فى اللحظة الأخيرة أن يترك البقية الباقية من جيشه ويهرب بنفسه الى فرنسا ، كان يرتكب أخس وأدنأ عمل يرتكبه قائد من القواد وهو التخلى عن جيشه للفناء . وما يقال عن خطط نابليون فى روسيا يقال عن خطط الروس فى مواجهة نابليون ، فكل حديث عن أن استدراج نابليون الى أعماق روسيا كان خطة مرسومة هو حديث هراء . لقد تصدى الكسندر لحرب نابليون فى بولندا الروسية فى مدينة فلنا . وكان كل تقهقر من الجيش الروسى يقابل بعاصفة من الاستياء والاستنكار . أما التخلى عن موسكو فقد اعتبر فى ذلك الوقت كبرى الجرائم . واذا كان جيش نابليون الذى يزيد على نصف مليون والذى حشد من جميع دول أوربا ، قد فنى عن بكرة أبيه ، فقد حدث ذلك نتيجة قوى الطبيعة ، وهكذاتسير الحوادث فى هذه الحياة لا بارادة البشر ولكن بارادة خفية .

ويسخر تولستوى كما لم يفعل أى انسان آخر ، وما كان لانسان آخر أن يجرأ على ذلك الا أن يكون تولستوى ، يسخر من نابليون ويسخر من كل بطولة متى كانت هذه البطولات لا تقوم الا على القتل والفتك واخلاف الوعود وتضحية الألوف من البشر ، يسخر من البطولة التى تعنى التجرد من كل ما يعتبره الناس فضيلة ورحمة . ان الغدر والكذب والنفاق والنهب والسرقة ، كل هذه رذائل تواضع البشر على استهجان كل من يقدم عليها ، ولكن عندما يقدم عليها من يصفه الناس بالبطولة ، فلا حرج عليه فى أن يرتكب كل هذه الموبقات ، لا حرج عليه أن يكون كذابا منافقا سفاحا غادرا ، ما دام قد انتصر فى المعركة ، أو تملك السلطان ، هذا ما يندد به تولستوى ولا يقبله بحال من الأحوال ، ان تولستوى لا يرى القتل يتحول الى عمل مشروع لأن الآمر بالقتل هو نابليون أو غيره من عظماء الرجال ، ولا يرى النهب والسلب يصبح فضيلة ما دام يجرى فى خلال حرب .

انه يسخر من هذه البطولات الزائفة ، انه يسخر من هؤلاء الرجال الذين

يجمعون مقاليد البشر فى أيديهم ثم يتصرفون كما لو كانوا آلهــة ، وهم لا يملكون لأنفسهم ضرا ولا نفعا ، ولا يساوون فى عالم الحقيقة أكثر مما يساويه جناح بعوضة تطن فى الهواء .

هذا هو الأساس والجو الذى تقوم عليه وتعيش فيه رواية الحــرب والسلام ، أما القصة أو بالأحرى القصص التى بثها تولستوى فى رواية الحرب والسلام ، والتى انتزعها من حياته الخاصة ومن كل ما يحيط به من أشخاص وعادات وحوادث ، فقد شاهدها رواد السينما ، وافتتنوا بها أيما افتتان ، على أن الذى لا يجب أن يبرح البال عند ذكر رواية الحرب والسلام ، أنه قد قصد بها فى الدرجة الأولى التنديد بالحروب ، وما يوصف بالأمجاد العسكرية وكراهية العنف بصفة عامة .

وهكذا لم أكد أفرغ من قراءة رواية الحرب والسلام ، حتى كان تولستوى قد تربع على عرش فكرى وقلبى كأعظم فنان وأديب ومفكر . ولم أتصور أن باستطاعة تولستوى أن يكتب فوق ما كتب فى الحرب والسلام ، ولما كانت قراءة الحرب والسلام تتطلب جهدا كبيرا لمتابعة حوادثها ومعاركها ، ومختلف شخصياتها وتفهم أفكارها ، فقد أحسست بالكلل عقب قراءتها ، واحتجت لبضعة أيام أهضم فيها هذا الذى طالعت ، وأريح أعصابى وخيالى وعقلى بعد هذه الرحلة الطويلة خلال التاريخ وعبر روســيا وفى مجاهل النفس البشرية .

أزمــــة :

وكان القدر يعد لى فى هذه اللحظات وعقب قراءتى لرواية الحرب والسلام أخطر أزمة مرت فى حياتى ، فقد كانت نوايا الحاكمين فى مصر قد اتضحت فى هذه الآونة ، وعملوا على الباسى تهمة حريق القاهرة . لقد كنت فى هذا اليوم على فراش المرض لم أبارح منزلى ، ومع ذلك فقد جاء المحققون بشهود

يقررون أنهم رأونى رأى العين وأنا أحث الجماهير على الاحراق والاتلاف ، وشهد البعض أنهم رأونى أمام النادى الانجليزى « التيرف كلوب » واننى قذفت بالفعل عليه كرات محترقة فأشعلت به النيران ، ولما كان سبعة من الانجليز قد شووا شيّا فى هذا النادى واحترقت أجسادهم ، فان معنى ذلك أن يكون عقاب الجريمة الاعدام . وكان كل من فى مصر يلغط بأن الملك فاروق الذى كنت أهاجمه بعنف فى الجريدة الاشتراكية ، قد صمم على أن ينهى حياتى فى هذه القضية وانه اتفق مع النيابة والقضاء لتحقيق هذه الغاية ، ولم أكن فى بادىء الأمر أعير هذه الاشاعات أهمية لاطمئنانى الى قوة الحق وبراءتى من هذا العمل ، ولذلك فقد قضيت الأسابيع الأولى فى السجن وأنا مرتاح الضمير مطمئن البال ، أستمتع كما رأيت بمطالعة الحرب والسلام ، ولكننى فوجئت بتطور التحقيق فى اتجاه جديد ، ومقدم هؤلاء الشهود الذين راحوا ينظرون الىّ بتبجح غريب مؤكدين أنهم رأونى رأى العين أحرق وأحرّض على الحريق . ولقد ظهر فيما بعد قيام الثورة ، كيف تقاضى هؤلاء الشهود أموالا ضخمة للادلاء بشهاداتهم ، ولكنها فى ذلك الوقت كانت شهادات لها كل القيمة والاعتبار ، فقد كان أحد هؤلاء الشهود مهندسا وكان بعضهم الآخر مديرا لبعض الشركات .

وجاء قرار الاتهام حيث طالبت النيابة فيه برأسى ، وقد دلت السرعة التى دعيت فيها للمثول أمام المحكمة العسكرية ، على صدق الاشاعات وأن الأمر قد سوى بليل وأن مسألة الحكم على بالاعدام مسألة مقررة . فقد كان رئيس المحكمة قد حكم على مقدما فى حيثيات بعض القضايا التى أصدرها فى حوادث الحريق ، اذ عين المحرضين على هذه الجرائم وندد بهم وقد وصف هؤلاء المحرضين وصفا لا ينقصه الا اسمى ، وكان هذا القاضى بالذات هو الذى أحيلت عليه قضيتى ، وكان عليه أن ينظرها فى بضعة أيام لأنه كان سيحال بعدها على المعاش .

وهكذا أيقنت بقرب النهاية وانه لا فكاك لى من الموت . ولم يكن الموت ليزعجنى بأى حال من الأحوال ، فأنا أعرف أنه النهاية الطبيعية لكل حى ، ولكن الذى كان يزعجنى بل ويقهرنى هو الظلم ، هو رؤية الغش والتدليس والتلاعب بالتحقيق ، هو تحويل الأبيض الى أسود والبرىء الى متهم والشاهد الكاذب الى صادق أمين .

لا أحسب أننى فى حياتى شعرت بخيبة أمل كما شعرت بها فى هـذه اللحظات ، لا أحسب أننى عشت فى ظلام كما عشت فى هذه الفترة من حياتى .

وبدأت أهيىء نفسى للموت شنقا ، وكان الى جوار زنزانتى أشخاص محكوم عليهم بالاعـدام فرحت أدرس أحوالهم ، وأضع نفسى مكانهم ، وعندما أجرى تنفيذ الأعدام بالفعل فى بعضهم ، وارتج السجن واهتز نتيجة سقوط أجسادهم فى الحفرة ، كان قلبى يسقط معهم ، وتجرعت بخيالى غصة الموت شنقا . وقد تخيل طبيب السجن اننى قد أصبت بمس ، عندما رحت أسأله عما اذا كان المحكوم عليه بالاعدام يتألم عند شنقه ، فأجابنى طبعا يتألم ، فقلت له اننى لا أتصور ذلك ، فنحن نتألم ما بقينا أحياء ، وما بقى الألم فى حدود المعقول ، أما عند ما يصبح الألم عنيفا وشاملا ومفاجئا وتنتهى الحياة بعده ، فلا مجال هناك للاحساس بالألم الذى نحس به ونحن أصحاء أقوياء ، ثم نصاب بعارض .وقد حملق الطبيب فى وجهى فى دهشة ولم يحر جوابا ، ولكنه حدث الضابط بعد ذلك اننى دخلت فى دور الهلوسة . فى هذه اللحظات عافت نفسى الطعام ، بل وعافت المطالعة وعافت كل شىء ، ولم يكن أمامى الا أن أظل راقدا على ظهرى أحملق فى سقف الزنزانة ، وأنفاسى تكاد تزهق من الضيق والاختناق .

ولم أعرف ماذا أفعل ولا أين أروح أو أجىء ، ولأول مرة شعرت بزنزانة السجن ضيقة مظلمة وكأنها محشورة فى حلقى .

وكانت أمامى كتب تولستوى ولم يكن باستطاعتى أن أمد يدى لتناول كتاب منها ، فروايات تولستوى الضخمة تحتاج الى تفرغ وخلو بال وصفاء ذهن ، ولقد كنت فى هذه اللحظات مجموعة من الأعصاب المحمومة أو قل المحترقة .

ولكنى كنت أعرف أن من بين هذه الكتب ما يشتمل على قصص صغيرة ، فقلت فى نفسى ان هذه القصص الصغيرة لا تحتاج الى جهد فى قراءتها فلأحاول أن أسرّى عن نفسى بمطالعة بعض منها .

نور يبـدد الظلمات :

وأمسكت بالكتاب ، وقد أصبح من عاداتى أن أطالع مقدمة المترجم لكتب تولستوى لأنه يمهد لموضوع القصة وما قيل فى تقويمها ، فاذا بهذه المقدمة تقول عجبا ، تقول ان تولستوى بعد أن فرغ من تأليف رواياته الكبرى ، بعد أن وصل القمة فى روايات البعث والحرب والسلام وأنا كارنينا والقوزاق وحاجى مراد ، اذا به يعلن ثورته على كل هذا الذى كتب ، واذا به يصف هذا الذى فعله بأنه تضليل كهذا الذى يقدم عليه جميع المؤلفين . لأنه قد كتب لأجل الفن لا لأجل هدف آخر ، وليس هناك قضية زائفة أكثر من فكرة « الفن للفن » . فالفن ان لم يكن له هدف يسعى لتحقيقه فهو لغو وعبث ، وهو ضار بالبشر ، فالفن يجب أن تكون له رسالة هى هداية الناس وتعليمهم وتثقيفهم ، ولما كانت الجمهرة العظمى من بنى البشر قليلة الحظ من التعليم والثقافة ، فيجب أن يهدف الأدب الى الوصول الى هذه الملايين ، الى مخاطبة الفلاحين والعمال الكادحين ، الى محادثة الأطفال والنساء ، الى محادثتهم جميعا بأسلوب سهل وبسيط يفهمه الجميع على اختلاف جنسياتهم وأوطانهم ودينهم ، ويكون جديرا بأن يدخل السعادة الى نفوسهم .

ولننقل عبارات تولستوى بنصها فى هذا الصدد من كتابه « ما هو الفن » :

« ان فنان المستقبل لابد له أن يدرك أنه عندما يؤلف حكاية خرافية ، أو أغنية صغيرة تحرك القلوب ، أو ترنيمة مما ينام عليها الأطفال ، أو أحجية (فزورة) مما يتسلى به عامة الفلاحين ، أو يقوم بحركة مضحكة ، أو نكتة بارعة تشيع السرور فى نفوس الكثيرين ، أو رسم بسيط يدخل البهجة على قلوب عشرات من الأجيال أو ملايين الأطفال والفتيان ، ان مثل هذا الفنان هو أهم وأخطر ثمرا وانتاجا ونفعا من هذا الذى يؤلف رواية ، أو سيمفونية موسيقية أو يرسم لوحة زيتية ، من النوع الذى يستأثر باهتمام عدد قليل من الطبقات الغنية لفترة قصيرة من الزمن ، ثم لا تلبث بعده أن تنسى وتندرج فى زوايا الاهمال .

ان ميدان هذا الفن الذى يعتمد على المشاعر البسيطة التى تتصل بالملايين هو ميدان لا حد لاتساعه ، ولم يطرق بابه بعد تقريبا » .

حكايات تولستوى :

وتطبيقا لذلك فقد شرع تولستوى يؤلف حكايات خرافية ، أو يسجل بأسلوبه الأساطير الروسية الشائعة بين الفلاحين . وكان هذا الكتاب الذى وقع فى يدى يضم بضعا وعشرين من هذه الحكايات والأساطير . وبدأت أطالع ، حكايات بسيطة من تلك التى اعتدنا أن نسمعها فى طفولتنا ، ويلذ لنا أن نسمعها حتى بعد أن نكبر ، وبدأت الحكاية تمسك بشغاف قلبى ، وبدأت الدموع تنحدر من عينى ، وبدأت أبكى وأبكى كلما مضيت فى تلاوة الحكاية ، حتى اذا فرغت منها كنت أنشج بالبكاء كأسعد ما كنت فى يوم من الأيام ، فقد كان الحب والخير والأمل يشع فى كل حرف من حروف هــذه الحكاية وانتقلت الى الحكاية الثانية فاذا بها تسير على نفس النهج ومرة أخرى كانت الدموع تنحدر من عينى ، وكان قلبى يخفق مع نبضات الحكاية ، وعندما انتهيت من قراءة الحكاية وضعت الكتاب فى هدوء الى جوارى ورحت

أبكى وأبكى كما لم أبك فى حياتى وأنا أشعر بلذة فى البكاء ، فقد كان الكابوس الذى جثم على نفسى طويلا ينزاح رويدا رويدا مع الدموع والزفرات .

وكان الظلام الذى خيم حولى ينقشع ويتبدد .. وعندما هدأت العاصفة ، اذا بى أحس وكأنى قد بعثت من جديد ، وكأنى قد ولدت مرة أخرى ، لقد زالت المرارة من فمى ، وتذوقت الحلاوة على لسانى ، لقد امتلأت نفسى بالأمل والرجاء ، لقد زال منها السخط والغضب وفاضت بالحب والتسامح والايمان واليقين . لقد عدت من جديد الى حظيرة الايمان وقد أعادنى اليها تولستوى بحكاياته البسيطة التى نزل فيها الى مستوى الأطفال . ولم يقوم الكتاب والأدباء والنقاد ،حكايات [1] تولستوى أحسن تقويم ، بل لقد أظهروا الجزع ، وامتلأوا حزنا وأسفا عندما طلع عليهم تولستوى بهذه الحكايات الخرافية القصيرة ، وراحوا ينعون الفنان العظيم . لقد تباكوا على الحرب والسلام وأنا كارنينا ، وراح يعزى بعضهم بعضا ، ووصفوا الرجل الكبير بالشذوذ والخرف ، وعندما عاد ليكتب لهم من جديد روايات طويلة كقصة موت ايفان اليتش ، وكرويتزرسوناتا ، صفقت روسيا وأوربا من جديد للفنان الذى عاد الى مجده ، ولم تخب بعد نار عبقريته .

الخلود للفن :

أما بالنسبة لى فاشهد لقد استمتعت برواياته الكبرى كقطع من الفن والفكر . أما حكايات تولستوى الصغيرة البسيطة ، فقد كانت بالنسبة لى هى النور الذى بدد الظلام ، وهى الأمل والرجاء بعد اليأس ، ولست أظن آن لأى مؤلف آخر فى حياتى مثل هذا الأثر . لقد كان للأثر الذى خلفه تولستوى فى نفسى فى هذه الأزمة التى مرت بحياتى ، نتائج بعيدة الغور فى تفكيرى ، وليس اقدامى على تقديم هذا الكتاب الا مظهر من مظاهر

(١) اصدرت مجلة كتابى عددا خاصا فى شهر سبتمبر والكتاب فى نهاية الطبع عن هذه الحكايات وقد قام بترجمتها الاستاذ زكى شنودة المحامى .

ذلك . لقد جعلنى تولستوى أومن ايمانا جازما ، بأنه ليس أبقى فى هـذه الدنيا من الفنـان ، وان العظمة الحقيقيـة لأى فرد من البشر ، لايمكن أن تقاس بمقدار ما يقوم به من ضجيج ، ولا ما يقدم عليه من فتوحات . ان العظمة الحقيقية الخالدة ، لاتقاس بالنفـوذ والسـلطان ، ولا بالمال أو الثراء ، أو بالشهرة التى تطبق الخافقين ، لأن ذلك كله لا يلبث أن يزول أو ينتهى . يندرس الملوك والقياصرة ويتحول الجبابرة والفاتحون الى عظام نخرة وتراب ، ويأخذون مكانهم مهما عظم شأنهم الى بطون كتب التاريخ فى بعض سطور هنا وهناك . أما الفنان الذى يستطيع أن يقدم للبشرية كتابا يسعد من يطالعه فهذا هو الحى الخالد وهذا هو عظيم العظماء .

انظر الى هذه الحادثة التى قصصتها عليك تدرك معنى العظمة التى تتجدد والخلود الذى لا ينتهى . فهذا رجل روسى عاش منذ مائة عام وسط أقوام يختلفون معنا فى كل شىء ، ويكتب بلغة غير لغتنا ، ويكون من بين ما يكتب حكايات صغيرة وبسيطة ، فيطالعها انسان محكوم عليه بالاعدام فى عام ١٩٥٢ فى بلد اسمه مصر ، انسان تألبت عليه قوى الشر والطغيان فى ذلك الزمان ، فاذا بهذه الحكايات تبدد ما فى نفسه من يأس وقنوط ، وتملأها بالرجاء والأمل ، وترده ثانية الى جادة الايمان والرضاء بالقضاء والقدر .

وتظل الأجيال بعد الأجيال تطالع آثار الفنانين فيما كتبوا وفيما صوروا ، فيستمتعون ويسعدون على اختلاف وتفاوت فيما بينهم . ويظل عمل الأديب والفنان والكاتب باقيا على مر الزمن ، خالدا خلود الأيام ، كالشمس المشرقة تبعث دائما بالنور والدفء والحياة .

انظر الى الأنبياء وما جرى على ألسنتهم من كلمات وعبارات وقصص تفيض بالبساطة والطهر .. وهذه الحكايات وتلك القصص هى التى أثرت وتؤثر فى البشرية وستظل تؤثر فيها الى نهاية الحياة .

لقد خاطب عيسى وموسى ومحمـد وبوذا وسائر النبيين والقديسين والشهداء ، الناس بحكايات بسيطة مبينين لهم فى عمق واخلاص ما تنطوى عليه من مغزى ، قالوا هذه الحكايات من أعماق قلوبهم بالروح كلها ، فاذا بالملايين تتبعهم ، واذا بهذه الحكايات تصبح آيات ترتل وتحفظ وتبعث الأمل والنور والرجاء لملايين من البشر .

ولذلك فلو قد سئلت عن أمنية لى أتمنى لو أحققها أنا الذى اشتغلت بالسياسة والجهاد أكثر من ربع قرن ، لما طلبت منصبا أو جاها أو عزا أو ثروة ، بل لتمنيت شيئا واحدا ، هو أن أكتب قصة أو أكتب حكاية ، تكون مبعث سرور أو أمل ورجاء ، لانسان شقى أو محروم أو مضطهد ، فى ركن من أركان الأرض بعد جيل أو أجيال من الزمان ، كما أسعدتنى حكايات تولستوى ابان محنتى . ولكن هيهات ، فما كانت العبقرية تدرك بالتمنى ، ولكنها تخلق خلقا ، ولقد خلق تولستوى عبقريا فنانا ، ولقد خط فى اللوح المحفوظ منذ الأزل انه ولد ليكون عبقريا فنانا .

ولعل ذلك يدلك على مقدار تأثير تولستوى فى نفسى ، وكيف رفع الأدب والفن فى رأيى الى أعلى الدرجات التى لا تساميها درجة .

ولعلك تطمع بعد ذلك منى أن أقص عليك هاتين الحكايتين أو مجموعة الحكايات التى أثرت فى نفسى هذا التأثير ، ولكن هيهات أن أفعل ذلك فحرام أن أشوه روعة الحكايتين بسردهما فى ايجاز ، ولو أنى ذكرتهما كما ينبغى أن يذكر لاحتاج ذلك الى مؤلف آخر ، وحسبى أن أذكر لك أسماء هذه الحكايات لتطالعها اذا أتيح لك أن تقع فى يدك مجموعة حكايات تولستوى وقصصه الصغيرة . أما الحكاية الأولى فاسمها « ما هو الشىء الذى لا يعيش البشر الا به » وجواب السؤال هو الرحمة ، فالرحمة وحدها هى التى تجعل الانسان انسانا ، ولا تنزع الرحمة من قلب انسان ، الا وفقد انسانيته وأصبح مسخا مشوها يفوح بالنتن والعفونة حتى لكأنه قبر مهجور .

أما الحكاية الثانية ، فعنوانها « حيث يوجد الحب فالله موجـود » وحكاية ثالثة حول شيخين ذهبا ليحجا فى بيت المقدس . أحدهما متزمت ينفذ تعاليم الدين حرفيا ، أما الآخر فامتلأ قلبه بالرحمة والحب والايثار والتضحية ولكنه لا ينفذ الدين بحرفيته ، وتنتهى القصة بانتصار هذا الأخير فهو الذى حج مع أنه لم يذهب الى بيت المقدس ، وهو الذى تغمره روح القدس وهو لم يبرح بيته ، وما ذلك الا لأنه تصدق بنفقات رحلته الى بيت المقدس لانقاذ أسرة كادت تموت جوعا .

وحكايات أخرى من هذا القبيل وعلى هذه الوتيرة .

ندوة تولستووية :

ولقد تحول السجن بعد اكتشافى هذه الحكايات الى ندوة تولستووية ، فقد فرح الضباط — وكانوا يعطفون علىّ فى خلال هذه القضية — بما رأوه من انقلاب فى أحوالى ، وسألونى عن السبب ، فقصصت عليهم حكايات تولستوى ، فاذا بهم يتأثرون مثل تأثرى بها ، واذا بهم فى كل يوم يطالبوننى بالمزيد من حكايات تولستوى ، فأروح أطالع لهم فى خلوتى ثم أقصها عليهم عندما نجتمع ، وشارك بعض السجناء فى سماع الحكايات والقصص ، وهكذا تألفت فى سجن الاستئناف حيث كنت أنتظر حكم الاعدام فى شهرى ابريل ومايو من عام ١٩٥٢ ندوة تولستووية .

انفراج الأزمة بقيـام الثورة :

وتطورت الحوادث بعد ذلك وكافحت لتعويق نظر القضية حتى أطيح بالقاضى الذى كان يعتزم اعدامى ، ثم قامت الثورة فى يوليو سنة ١٩٥٢ ، ومع قيام الثورة ردت الىّ الحياة والحرية ، وخرجت لأستقبل الحياة الجديدة التى قدرت لبلادنا ، الحياة التى تحقق فيها الكثير من الآمال والأحلام ، الكثير مما كافحنا وجاهدنا من أجله . وعشت مع الرجل الكبير تولستوى ومع

مؤلفاته ، وبدأت حياته الطويلة تتكامل فى ذهنى ، وبدأت أعرف تاريخ الرجل كما هو مبثوث فى مؤلفاته ، وانه من الخطأ أن نتصور أن تولستوى كان مؤلفا روائيا ، أو أنه كان مصلحا اجتماعيا ، أو انه كان مفكرا ، فالحقيقة أن الرجل كان ذلك كله ، بل وكان أكثر من ذلك ، لقد كان من نوع النبيين واذا كانت هذه الكلمة تؤذى مشاعر المسلمين ، فان باستطاعتنا أن نستعمل تعبيرا آخر فنقول انه من نوع الصديقين والقديسين وأصحاب الطريق ، هؤلاء الذين تكبر قلوبهم حتى لتستوعب البشرية كلهــا حبا ، والذين ترهف مشاعرهم واحساساتهم حتى ليتألموا لموت فراشة أو ذبح حمامة ، ناهيك بتألم انسان .

غاندى أحــد تلامذه تولستوى :

ولقد أحدث تولستوى من الأثر ما يحدثه الأنبياء ، أو بالأحرى القديسون واعلام التصوف ، فانتشر فى العالم مذهب جديد يسمى التولستووية ، وأصبح لهذا المذهب أتباع فى كل ركن من أركان العالم ، وزحف هؤلاء القادرون من هؤلاء الأتباع الى روسيا ليحجوا الى قديس هذا الدين الجديد . وقيل ان من بين هؤلاء الذين حجوا لتولستوى اعجابا به وتأثرا بمبادئه رجل كان مقدرا له أن يؤثر فى تاريخ البشرية مطبقا مبدأ من مبادىء تولستوى ، وقد أخذ طريقه بين شعبه الى مرتبة الآلهة ، ذلك هو غاندى زعيم الهنــد ، فقد كان ممن تتلمذوا على تولستوى ، وآمن برسالة عدم العنف ، والجهاد من أجل التحرر والاستقلال فى غير عنف . وطبق ذلك المذهب وهذا الأسلوب بنجاح فى جنوب افريقيا ، ثم طبقه على نطاق واسع فى معركة الهند نحو الحرية [1] ، واذا كانت الهند تقف اليوم بسكانها الأربعمائة مليون والى جوارها الباكستان بمواطنيها المائة مليون ، أحرارا يساهمون بنصيبهم فى رقى البشر وتطور الانسانية ، فان الفضل الأول فى ذلك لغاندى ، ولمذهبه فى المقاومة السلبية . ولقد سخر أقوام من غاندى وهو يدعو الهنود لمحاربة الانجليز باحتمــال

(١) راجع كتابنا « أمة تبعث »

ايذائهم ، بتطبيق وصية المسيح « من ضربك على خدك الأيمن فأدر له الأيسر » وقالوا ان الأمم والشعوب لا تتحرر الا بالثورة وسفك الدماء ، ولكن الهند الحرة تقف اليوم شاهدة على أن دعوة غاندى فى عدم العنف قد انتصرت ، وانتصر معها تولستوى الذى دعا بدوره الى عدم العنف ، وعندما جنح الهنود الى العنف تحت تأثير مؤامرة الاستعمار وتقسيم الهند الى هندوس ومسلمين ، فوقعت المذابح وجرت الدماء أنهارا ، ذهب غاندى الى مكان الفتنة متسلحا بدعوته الى الحب والتنديد بالعنف ، فأرداه أحد المجرمين قتيلا ، فلم تكد دماء غاندى تراق حتى انطفأت الفتنة وساد السلام ، وهكذا أبى القديس الا أن يحقق رسالته بدمه ويؤكد الى الأبد صحة الدعوة .

وهكذا عاش تولستوى كقديس له أتباع وحواريون ومذهب يتحدث عنه ويؤتم به فى أكثر من مكان ، ولعل الحادث الذى بدأت به كتابتى ، من أن أخا قدم لى كتابا عن تولستوى ونحن ما نزال من سكان حى الجمالة عقب وفاة تولستوى ، مما يدلك على مدى نفوذ رسالة الرجل ومبادئه . وعندى أن تولستوى فى دعوته الى عدم العنف والى الحب كان — ككل دعاة هذا المنحى من قبله ومن بينهم اخناتون والمسيح وبوذا سابقا أوانه ، ولقد كان يحس ذلك من أمر نفسه ومن أمر دعوته ، اذ كان يرى الفارق الضخم بين ما يدعو اليه ، وبين واقع الحياة التى يحياها . وقد كان صاحب نظر وعقل وسمع وحس جعله يصور واقع الحياة بما لم يسبقه اليه انسان ، ولكنه بروحه وبقلبه الكبير كان يرنو الى آفاق بعيـــدة ، الى مجتمع يختفى منه القهر والاعنات ، ولا يسوده الا الحب والتعاون ، بحيث تختفى كل صنوف الحكومة والدولة والبوليس والســـجون والاستغلال والظلم والاضطهاد والقيـــود والاغلال ، بما فى ذلك اغلال الكنيسة والطقوس الدينية ، ولا يبقى ســـوى ايمان مجرد بالله أساسه الحب والتعاطف بين البشر .

كان هذا هو ما يرنو اليه تولستوى ، وكان يدرك فى ذات الوقت بعد

الشقة بينه وبين تحقيق ذلك ، وغلبته طبيعة الصدق فى كتاباته فشابها كلها القلق من امكان تحقيق ما يدعو اليه . بل انه كان ينظر الى نفسه فينحو عليها باللائمة ويقسو فيتهم نفسه بالنفاق والرياء لأنه هو نفسه لا يعيش كما يريد وكما يدعو اليه من حياة ، فهو لم يوزع أراضيه على الفلاحين كما هى دعوته دائما وانما تنازل عنها لزوجته وأولاده ، وهو ما فتىء يعيش فى القصور وخيلاء الشهرة التى غمرته من كل مكان ، ولذلك فقد ظل تولستوى حتى آخر لحظة من حياته مضطربا ، قلقا ، حائرا ، وكأنه أبى أن يغادر هذه الدنيا الا وهو مخلص لما يقول ويفعل ، فاذا به يهرب من قصره ومن زوجه وأولاده ، ليموت شريدا هائما على وجهه فى احدى محطات السكة الحديد .

وعندما لفظ أنفاسه الأخيرة فى ٢٠ نوفمبر سنة ١٩١٠ بعد ثلاث وثمانين سنة أمضاها فى الفكر والكتابة والتوجع لآلام الناس ، كان يضيف الى قائمة الخالدين على مر الزمن اسما جديدا يذكر على الفور عقب أسماء الأنبياء مع القديسين والصديقين والشهداء .

وهو يعيش الآن فى نفسى كعلم مفرد ، كتبه هى غذائى الروحى ، وهى التى تجدد نشاطى ، وهى التى تدخل السرور والبهجة الى حياتى كلما أعوزها ذلك .

* * *

لماذا اخترت هذه الرواية لتولستوى ؟ :

أحسب أن هذا القدر فيه ما يكفى للرد على السؤال الأول عن الحافز لى لترجمة بعض أعمال تولستوى ، وقد بقى أن نرد على السؤال الثانى وهو لماذا اخترت هذه الرواية بالذات لتكون أول ما أترجمه عن تولستوى وربما آخر ما أترجمه كذلك . لقد كان المنطق يقتضى أن تكون هذه الحكايات الصغيرة التى أثرت فى نفسى هذا التأثير الذى وصفته هى الجديرة بالترجمة ،

أو لعل رواية تولستوى الكبرى « الحرب والسلام » هى الأحق بهذه الترجمة ، فلماذا اخترت هذه الرواية بالذات وهى رواية تمثيلية ، حيث لم يشتهر تولستوى بأنه مؤلف مسرحى .

الحق أن حكايات تولستوى وأقاصيصه الصغيرة هى أول ما حملنى على التفكير فى ترجمة شىء لتولستوى ، وخاصة بعد أن رأيت قوة تأثيرها على كل الذين قصصتها عليهم ، ورحت أتساءل أيهما يكون أكثر تحقيقا لهدف تولستوى ؟ أن تقص هذه الحكايات بأسمائها الروسية ، أم تقص على المسلمين بأسماء اسلامية أى بالأحرى أن تعرب هذه الحكايات ، خاصة وأن موضوعاتها عالمية تصلح لكل زمان ومكان . وبين هذا التردد فترت حماستى خاصة بعد أن قدرت انه ربما يعزى نجاحها لطريقتى فى حكايتها ، وقد لا أستطيع أن أسجلها بالكتابة بهذه الروعة التى أحسها ، وأنا أكثر الناس شعورا بالعجز عن الأداء البليغ .

وأخيرا ربما كان تأثرى العميق بهذه الحكايات ، يرجع الى الظروف الخاصة التى طالعتها فيها ، ومن العبث أن أفرض على القراء ظروفا تعادل قسوة الظروف التى طالعت هذه الحكايات فى ظلها حتى يستمتعوا استمتاعى بها . وهكذا تضافرت هذه العوامل فأقعدتنى عن ترجمة هذه الحكايات ، وان كان مما لا شك فيه اننى لو قدمت كتابا آخر لتولستوى ، فلن يكون هذا الكتاب سوى هذه الحكايات التى أومن بتساميها وقوة تأثيرها .

بقيت روايات تولستوى الكبرى : البعث — وأنا كارنينا — والحرب والسلام ، وهذا مالم أفكر فى الاقدام عليه ، فقد سبقت محاولات من هذا القبيل وان كانت لم تترجم من روايتى البعث وأنا كارنينا [1] الا القصة المجردة ، أى مسقطة الآراء والأفكار والمناقشات التى كتبت الرواية من

(١) أنظر مجموعة روايات الهلال .

أجلها ، ثم صدرت ترجمات أخرى فى لبنان وافية لرواية الحرب والسلام وغـيرها .

وعلى أية حال فما كنت أتصور أن باستطاعتى أن أتصدى لترجمة رواية كالحرب والسلام ، فان مثل هذا العمل يحتاج الى تفرغ تام لفترة طويلة قد لا تقل عن عامين ، فضلا عن أننى لا أستطيع أن أدعى لنفسى القدرة على ترجمة مثل هذا العمل الضخم ووضعه فى الأسلوب العربى الذى يتفق مع جلاله وروعته كقطعة فنية من روائع الفن العالمى .

وهكذا لم تكن لدى أى فكرة للقيام بشىء من هذه الترجمات .

تمثيليات تولستوى :

ثم كانت رحلتى الى السودان عام ١٩٥٦ ، وفى خلال زيارتى لمكتبة فيكتوريا فى الخرطوم ، أبحث بين الكتب اذا بى أعثر على مجلد صغير يضم بين دفتيه مجموعة روايات تمثيلية لتولستوى . فلم أصدق عينى ، فعلى كثرة ما وقع فى يدى من مؤلفات لتولستوى ، وعلى كثرة ما طالعت فى مقدمات هذه الكتب اشارات لمؤلفاته ، لم يصادفنى حديث عن هذه التمثيليات . وبينى وبين التمثيل رباط قديم ، ففى شبابى المبكر كنت من هواة التمثيل والتأليف المسرحى ، فألفت ومثلت على مسرح المدرسة الخديوية والمسارح العامة ، واذا كان الكفاح السياسى قد صرفنى عنه بعد دخولى الى الجامعة وحتى سنوات مضت ، فان هواى فى المسرح لم ينقطع فى لحظة من اللحظات ، وأمتع ما أتذوقه من الأدب الفرنسى بالذات هو مسرحياته ، وما ذهبت الى باريس فى مرة من المرات الا وجعلت همى شراء مجموعة من المسرحيات التى كانت تنشر قديما فى مجلات خاصـــة بذلك . فبينى وبين المسرح صـــلة روحية لم تنقطع ، وعلى ذلك فباستطاعتك أن تقدر مقدار فرحى بالعثور عـــلى مسرحيات لتولستوى ، ولذلك فقد أخذت الكتاب وطرت فرحا الى حجرتى لمطالعته ، وقبل أن أقرأ حرفا واحدا مما جاء فى الكتاب ، كنت مصمما على

أن أترجم هذه المسرحيات التى سأطالعها ، وأحسست من نفسى القدرة على ذلك ، فلغة الحوار غير لغة الوصف والبيان ، من حيث السـهولة والوضوح ، وتعلقى بتولستوى وبالمسرح معا يحبب الىّ هذا العمل ، فضلا عن أن الرواية المسرحية ستكون محدودة الحجم ولا تحتاج لجهد أو كبير عنـاء وطويل وقت . وشرعت فى تلاوة الروايات بترتيبها الذى وردت به فى المجموعة ، وكان أولها رواية قصيرة ولو أنها فى ستة فصول وقد وصفها تولستوى بأنها كوميديا وهى تعتمد على احدى حكايات تولستوى الصغيرة والتى أطلق عليها اسم « العفريت وكسرة الخبز » أما التمثيلية فقد أطلق عليها اسم « عاصر الخمر الأول » ، وتدور حول كيف أن الخمر هى سر فساد المجتمع ، وأن الشيطان لما فشل فى اغواء فلاح تقى ، دس عليه فكرة تخمير النبيذ ، فكانت الخمر ، وكان امتلاء الدنيا بالشر . وهى قصة كما ترى رمزية ، فضلا عن أنها قصيرة لا تصلح لشغل أمسية من أمسيات رواد المسارح .

سلطان الظـــلام :

وتلى هذه المسرحية ، مسرحية أخرى أطلق عليها اسم « سلطان الظلام » وهى رواية دراماتيكية مخيفة ، ولا يمكن أن توصف الا بأنها مخيفة ، وهى تقوم على زوجة فلاح أحبت أحد العمال الذى يشتغل لدى زوجها ، فتعاونا على قتل الزوج بالسم ، ثم تزوج العاشقان ، وما أن يضع العاشـق أو الزوج الجديد يده على تركة الزوج المتوفى حتى يستبد بالأمر ويكره زوجته ، ويعشق ابنة الرجل المتوفى ، التى لا تلبث أن تسلمه نفسها فتحمل ، ويضطر الزوج لازهاق روح هذا الطفل بطريقة بشعة تخلصا من عاره وحلا للاشكال ، وهكذا تتوالى الجرائم ، ظلمات اثر ظلمات ، وما أن ينحرف الانسان عن الجادة ، حتى لا يعرف حدا يقف عنده ، والجريمة تلد الجريمة والشر لا ينتج الا شرا ، وللظلام سلطان يسيطر به على النفوس ، حتى اذا تعقدت الأمور وضاقت

بالمتفرج على هذه الرواية الأنفاس بحيث لا يعرف كيف يكون الخلاص ، اذا بتولستوى يحل العقدة فى آخر مشهد من مشاهد الرواية ، وذلك بأن ينتهز الزوج القاتل فرصة اجتماع أهل القرية فى زفاف ابنة الزوج الراحل التى اعتدى على عفافها ، حتى يعلن على رءوس الاشهاد جرائمه واحدة بعد أخرى ، طالبا من هؤلاء الذى اعتدى عليهم الصفح والمغفرة ، ويعترف الرجل بجرائمه التى تقشعر منها الأبدان ، دون أن يرحم نفسه ، أو يخفى شيئا ، مما يجعل أبوه الذى كان حاضرا هذا الاعتراف والذى كان ينقم عليه جرائمه فى الماضى يصرخ من الفرح ويقول « قل ، قل يا بنى تكلم امض فى اعترافاتك .. انك لم ترحم نفسك ، فسوف يرحمك الله » .

وهكذا يرى تولستوى ، ان الاعتراف الصادق الأمين يمحو الخطيئة مهما بلغت شناعتها ، وكأنه يعبر عن الآية الكريمة « يا عبادى الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله ، ان الله يغفر الذنوب جميعا » .

وعلى قدر عظمة هذه الرواية من الناحية الفنية وما تكشف عنه من قوة تصوير تولستوى للأشخاص والتغلغل الى أعماق النفس البشرية ، وبمقدار ما تكشف عن روح تولستوى ودعوته للرحمة والتسامح ، فقد ترددت طويلا فى ترجمة هذه الرواية لأن تولستوى يعرض فيها الجرائم التى ترتكب بصورة واقعية تضاعف فى بشاعتها وقد لا تحتملها أعصاب الكثيرين ، وقد يتركون المسرح قبل الفراغ منها ، وان كانت هذه الرواية قد مثلت فى باريس بنجاح لم يسبقه مثيل ، حتى لقد مثلت على ثلاثة مسارح فى آن واحد (١) .

---

(١) قمت بناء على تكليف من صديقى الأستاذ أحمد حمروش بترجمة هذه الرواية للفرقة القومية ، وقد قام باخراجها بنجاح كبير الأستاذ الفنان فتوح نشاطى ، وكان للمعاونة الصادقة التى قدمتها وزارة الثقافة فى الاتحاد السوفييتى أثر كبير فى النجاح ، اذ بعثت للفرقة القومية بصور وملاحظات وتسجيلات صوتية للرواية كلها ، كما أمدت الفرقة بخبير أشرف على توجيه الراقصين فى الفصل الأخير من الرواية ، وذلك فى موسم الفرقة ١٩٥٨ ـ ١٩٥٩ .

ثمرة الثقـــافة :

أما رواية تولستوى التالية ، فرواية من نوع الكوميدى أطلق عليها اسم ثمرة الثقافة ، وهى تدور حول تحضير الأرواح وما يدور حول ذلك من خرافات وخزعبلات ، تأخذ صـــورة العلم والنظريات التجريبية ، وكيف أن البشر لم يكادوا يتخلصون من السحرة وأصحاب التعاويذ والتمائم ، حتى جاء هذا الفن الجديد فى استحضار الأرواح ليلعب ذات الدور . وقد أشار تولستوى فى الرواية لمشكلة الأرض ووجوب توزيعها على الفلاحين .

وأسرعت الى المسرحية التالية دون أن أتصدى لترجمة هذه المسرحية ، أما هذه المسرحية التالية فقد كان عنوانها « الجثة الحية » .

وتدور حوادثها حول انسان اعتبر من الناحية القانونية فى عداد الأموات مع أنه كان حيا يرزق ، وقد تصدى تولستوى فيها لانتقاد القوانين واظهار ما تحدثه من آثار فى ارباك حياة الناس .

نور يسطع فى الظلام :

وأخيرا وصلت الى آخر مسرحية فى المجموعة ، وعنوانها « نور يسطع فى الظلام » وقد استهوانى الاسم منذ اللحظة الأولى . ولم أكد أمضى فى تلاوة السطور الأولى من المسرحية ، حتى وجدتنى فى صميم مشاكل تولستوى الخاصة ، فهذه زوجته تحادث أختها عن العارض الذى ألم بزوجها اذ يريد أن يوزع الأرض على الفلاحين ، وكيف بدأ يهاجم الكنيسة ، ويطلب من أولاده أن يتركوا ما هم فيه من التعليم والوظائف الحكومية وأن يقبلوا على زراعة الأرض ويعيشوا مع الفلاحين كأفراد منهم . وتصعق أخت الزوجة لسماع هذه الأنباء ، وتدور الرواية حول هذا المحور ، حيـــاة تولستوى ومبادئه ، ولم أكد أنتهى من الرواية حتى وجدتنى أهتف ، الله أكبر .. هذا هو تولستوى فى داخل (برشامة) ، تولستوى بكل تاريخ حياته ، بكل أخلاقه ، بكل قدرته الفنية ، بكل مبادئه وأفكاره يمثل على المسرح . انها

الرواية الجامعة المانعة عن حياة تولستوى ورسالته ، ولذلك فلم أكد أفرغ من قراءتها حتى كنت أشرع على الفور فى ترجمتها ، فلم يكن الأمر يحتمل أدنى تردد . فمن أراد أن يعرف الكثير عن تولستوى فان هذه الرواية تغنيه .

تاريخ حيـــاة تولستوى :

فالكونت نقولا تولستوى أحد كبار الاقطاعيين الروس صاحب الضياع الواسعة فى اقليم تولا وصاحب القصر الكبير فى اسنايا بوليانا والنبيل من أعرق الأسر ولد له فى الثامن والعشرين من أغسطس سنة ١٨٢٨ ليو نيقولافتش تولستوى .

وشب تولستوى فى هذا القصر الكبير يعيش كما يعيش أمثاله من أبناء الأمراء والكبراء .

وعندما وصل الى سن الشباب اندفع فى حياة القصف واللهو فيشرب الخمر حتى لا يكاد يفيق ويتهالك على النساء فتيات ومتزوجات ، من بنات الأسر ومن طريدات المجتمع .

وفى سن السادسة عشرة يلتحق بالجامعة بقسم الدراسات الشرقية فيتلقى دروسا فى لغات شتى منها العربية والتركية ، ولكنه لا ينجح فى الحصول على الشهادة . فيدخل كلية الحقوق ولا يلبث أن يفشل فى الحصول على شهادتها كذلك . ولم يكن فشله لأنه كان كسولا ، بقدر ما كان يرجع الى نفسه الكبيرة التى تثور على القيود والدراسات الرتيبة ، فقد كان مقبلا على القراءة يلتهم آثار المؤلفين التهاما ، وكان من أكبر الذين أثروا فى حياته من الكتاب هو جان جاك روسو الذى كان أستاذا له منذ الخامسة عشرة من عمره .

وانتهى تولستوى بأن ترك كلية الحقوق ، كما ترك الدراسات الشرقية من قبل . وكان له شقيق يعمل ضابطا فى القوقاز فاقترح عليه أن يسافر معه ويتطوع فى سلاح الفرسان ، ففعل وسافر الى القوقاز ، حيث تأثر تأثرا عميقا

بطبيعة البلاد وسكانها ، ولم يلبث أن اشترك فى حرب القرم وحصار مدينة سباستبول الشهير فرأى الحرب رأى العين واشترك فى المعارك وخبرها وخبر حياة العسكرية والجندية ، مما جعل نفسه تعافها بعد ذلك طول حياته .

وكان من أعجب العجب أن يتحول الرجل من صناعة السيف الى صناعة القلم ، فآلى على نفسه أن يكرس ما بقى من حياته أديبا يكتب عن كل شيء ، عن الفن والدين والشعر والأدب .

الطفولة والصـــبا والشـــباب :

وأخرج للناس قصته الأولى بعنوان « الطفولة » وهى مذكرات طفل فى العاشرة من عمره من أسرة عريقة يصف حياته المنزلية ، ويصف أمه ومربيته واخوته .. الخ .

وبدأ تولستوى روايته الأولى عملاقا ، من حيث قدرته على وصف كل ما تقع عليه العين ويطرق الأذن ويتبادله الحس ، والغوص فى أعماق النفس البشرية ، ولذلك فقد قوبلت قصته الأولى بنجاح فائق واعتبر منذ اللحظة الأولى فى قائمة كبار الكتاب .

وشرع تولستوى يقوم برحلات فى غرب أوربا يزور معالمها ويستقرىء آثارها ويسير حيث سار أعلامها ، وفى عام ١٨٦١ صدر قرار من القيصر يلغى به نظام الرق فى روسيا ويلغى بالتالى تبعية الفلاحين لصاحب الأرض ، وهو أمر كان تولستوى من أكبر محبذيه والداعين له ، ولذلك فقد عاد الى أملاكه وكان أول العاملين على تنفيذ هذا المرسوم نصا وروحا ، وأنشأ مدرسة فى أملاكه وراح يعين الفلاحين بناء على نظريات جديدة ابتكرها فى التعليم . فالتلاميذ هم الذين يعلمون مربيهم طريقة الدرس ، وينبغى ألا يجبروا على الذهاب الى المدرسة بل يذهبون اليها من تلقاء أنفسهم عن رغبة لا عن رهبة بغير كراسة ولا كتاب كأنهم ذاهبون الى عيد من الأعياد ، وكان طبيعيا أن يشغله كل ذلك عن التأليف .

زواج تولستوى :

وظل تولستوى فترة طويلة من حياته يتهيب موضوع الزواج ، كأنه كان يعرف ما سيلقاه من الزواج من متاعب وصعوبات ما بقى من حياته ، وأخيرا فى عام ١٨٦٢ أقدم على الزواج من سونيا احدى بنات طبيب من أطبـاء البلاط القيصرى . وما من رواية من روايات تولستوى قد خلت من تصوير شخصية زوجته سونيا وأختيها ليزا وتانيا . وما شخصية ناتاشا فى رواية الحرب والسلام التى شرع فى تأليفها بعد الزواج الا مزيجا من شخصية زوجته سونيا ، وأختها تانيا التى كانت تملأ البيت مرحا وضحكا وصياحا .

وشغل تولستوى الخمس سنوات التالية لزواجه فى تأليف ملحمته الكبرى « الحرب والسلام » والتى جعلته يتربع على عرش الكتاب والفنانين لا فى روسيا وحدها بل فى أوربا كلها ، فواتته الشهرة من كل حدب وصوب ، وحقق لنفسه مجدا قلما حققه كاتب برواية واحدة .

المصلح الاجتمـــاعى :

فهل رضى تولستوى بذلك وقنع واستمرأ حياة النجاح والشهرة وأقبل على هذا اللون من الكتابة الذى ألبسه طيلسان المجد ؟ لا ان تولستوى نفس هائمة ، انه انسان لا يعيش لنفسه ، انه انعكاس لكل ما حوله ، ولم يكن حوله الا فساد فى علية القوم وجهاز الحكومة والأساس الذى تقوم عليه الدولة ، وآلام الملايين الكادحين المعذبين فى الأرض ، فراح تولستوى يفكر فى ذلك كله ويحاول أن يغوص لمعرفة جذوره وأصوله ، فتصدى للدين والكنيسة أول ما تصدى فاذا به ينكر من أحوال الكنيسة ما جعله لا يتردد عن مجاهرتها بالعداء فهو يراها قد انحرفت عن الطريق السوى ، انحرفت عن الانجيل وتعاليم المسيح . وقد استغرق هـذا الكفاح ما بقى من حيـاته ، فأعلنت الكنيسة حرمانها لتولستوى ومعنى ذلك استحقاقه للعنة كل مسيحى فى العالم وحرمانه من ملكوت السماء ، ومن الصلاة على جدثه ، ولكن

تولستوى لم يعبأ بذلك وظل سادرا فى طريقه يهاجم الكنيسة وطقوسها ، وقد كان من اللطيف ، انه لا يكاد يلفظ أنفاسه الأخيرة ، حتى تعلن الكنيسة أنه قد تاب قبل موته ولذلك فقد أرسلت له القسس يقومون له بالمراسيم الدينية وذلك لكى يتقربوا الى الملايين التى أصبح تولستوى يمثل فى نظرها كل ما هو نبيل ورائع .

الحملة على النظـام الاجتمـاعى :

والى جوار التشهير بالكنيسة ومساوئها ، شرع تولستوى يشهر بالمظالم الاجتماعية التى كانت سائدة فى عصره وعلى رأسها نظام الحكم ، وملكية الأراضى التى طالب بتوزيعها على الفلاحين ، فكتب فى ذلك وألّف ما يمكن أن يعتبر بالفعل البذور الأولى للثورة الشيوعية التى جاءت بعد وفاة تولستوى بسبع سنوات فقط . ويعترف لينين والد الثورة الروسية فى سلسلة من المقالات التى كتبها عن تولستوى بمناسبة وفاته ، بعبقرية تولستوى كفنان وبالدور العظيم الذى قام به فى زلزلة الأرض تحت أقدام النظام القديم ، وتشكيك ملايين الروس فى النظم التى كانت تعتبر خالدة ، كنظام القيصرية ، والكنيسة ، والاقطاع ، وشرعية الحكومة . وان كان يأخذ دائما على تولستوى دعوته الى عدم العنف ، وعدم ادراكه أن الحل الوحيد لما تعانيه روسيا من مظالم هو فى الثورة الاشتراكية التى يقوم بها العمال كضرورة تاريخية [1] .

ماذا يجب أن نفعل :

وقد صاغ تولستوى مبادئه الاجتماعية والدينية فى كتاب عنوانه « ماذا يجب أن نفعل اذن » وفى ختام هذا الكتاب أنذر بثورة جارفة مدمرة تغشى روسيا اذا لم تتدارك أمرها بالاصلاح الذى يدعو اليه بأن تنزل الطبقة الموسرة عن أملاكها بالرضا والاختيار وتوزعها على الفلاحين .

(١) اقرأ رأينا فى الموازنة بين خطط لينين وما يتصوره من وجوب العنف ، مع الرأى القائل بعدم العنف فى كتابنا « الطاقة الانسانية » .

وكان طبيعيا وقد وصل تولستوى الى هذا الحد من تفكيره أن يكون قدوة لغيره فيوزع أملاكه . وهنا اصطدمت معه زوجته وبدأ الاضطراب يدب الى حياته والانقسام يجرى بين أولاده : فريق يشايعه ، وفريق يشايع الأم ، وأخيرا يخضع تولستوى للأمــر الواقع فينزل عن أراضيه ولكن لزوجته وأولاده ، ويقنع بالعيش معهم دون أن يكون له دخل خاص ، الا مما قد يكسبه بعمل يده فيشرع فى تعلم بعض الحرف . وعند هذا القدر يكون تولستوى قد أصبح رجلا عالميا صاحب رسالة يهتدى بها ، ويصبح له تلاميذ ومريدون وهؤلاء يدعونه الى أن يطبق مبادئه ، فيهب دخل كتبه التى أصبحت تدر عشرات الألوف من الجنيهات للفقراء والمعوزين ، وهو شديد الحرص على تنفيذ ذلك ، ولكن زوجته تقف له بالمرصاد فتوسط القيصر لدى تولستوى وتبكى حينا ، وتشرع فى الانتحار حينا آخر لترده عن عزمه فيرضخ فى نهاية الأمر لدموعها ، فيترك لها نقوده مكتفيا هو بأن يحيا حياة الكفاف ويلبس لباس الفلاحين البسطاء ويأكل من كسب يده كنجار أحيانا .

ويفكر أكثر من مرة فى أن يفر من الحياة التى يحياها ولكنه لا يكاد يفعل حتى تلحق به زوجته وتعيده من جديد الى ما هو فيه .

وأخيرا قرر تولستوى أن يهجر هذا العالم الذى لا يستطيع الاستمرار فيه ، فترك بيته فى ليلة شتاء عاصف ، وركب القطار فى طريقه الى بلدة رستوف أى أنه قطع فى القطار ألف كيلو متر .

وكان البرد قد تملكه وارتفعت حرارته وأصيب بالحمى فرأى من كانوا يصاحبونه فى هربه وعلى رأسهم ابنه أن ينزلوا به فى أول بلد يقف فيها القطار ، وكانت قرية صغيرة تسمى استابوفو ، ولم يكن فى القرية كلها مكان يمكن أن يأوى اليه تولستوى الا حجرة فى بيت ناظر المحطة .. ولم تمض بضع ساعات حتى كانت هذه الحجرة قد أصبحت محط أنظار العالمين ، فقد

تسامع الناس عن طريق البرق بمرض تولستوى فجاء مندوبو الصحف من كل فج عميق ، وجاءت زوجته مع القادمين ولكن لم يسمح لها بمقابلته ، وفى ٢٠ نوفمبر من عام ١٩١٠ لفظ أنفاسه الأخيرة .

هذا هو موجز سريع لحياة تولستوى المادية والأدبية ، وملخص مبادئه التى عاش من أجلها ، وسنرى ذلك كله مرسوما ومسجلا فى روايته « نور يسطع فى الظلام » .

وسنرى عبقرية الفنان وكيف جعل من آرائه وحياته الشخصية مسرحية تتمثل فيها كل مزايا المسرحية من الناحية الفنية ، فالحبكة والقوة الدراماتيكية ، والاثارة موجودة ومتوافرة ، وتصوير الشخصيات بصورة حية ، والاهتمام بأدق التفاصيل لاعطاء الصورة الكاملة ، كل ذلك متوافر ومتحقق .

سوف نرى أن تولستوى لا يفوته خلال مناقشة فلسفية حول الدين والعقيدة ، أن يذكرك بأن أولاده كانوا يلعبون التنس فى الحديقة وكيف كانوا يتشاجرون حول الكرة وهل أصابت المرمى أم أخطأته .

وسترى كيف أنه قد ينهى الحديث قبل أن يتم حجة من الحجج وما ذلك الا ليصور طبيعة المناقشات وأن كل المتناقشين يقطع السبيل على الآخر ، وان كثيرا من الحوادث التافهة قد تصرف الانسان عن اتمام حجة بدأ يذكر مقدماتها . بل ستراه كيف يقسو على نفسه ويتهمها بالنفاق والرياء ، وكيف يتساءل فى نهاية الأمر أيكون مخطئا فى كل ما يقول . انه اعجاز تولستوى الفنى يرى على أكمل وجه وهو يصور مختلف الشخصيات ويبرز طابع كل منهـا .

وهو تاريخ حياته الذى ألممنا به فيما سبق وأخيرا هى مبادىء تولستوى وأفكاره وتعاليمه قد ركزها فى هذه الرواية .

ولما كانت هذه المبادىء والأفكار ، هى ما أصبحت أميل له كل الميل ،

بل هو ما كان محل تطبيقى طوال حياتى الماضية ، فقد رأيت أن ترجمة هذه الرواية وتقديمها لأبناء اللغة العربية هو أسهل طريق للتعريف بكل ما يتصل بتولستوى ومبادئه .

وقد بقى أن نتساءل ، وما هى على التحديد هـذه المبادىء والأفكار التولستوية التى وضعت هذه الرواية للتعبير عنها ؟ .

* * *

المبادىء التى صـــورها تولســـتوى فى روايتـــه :

لخص تولستوى مبادئه التى عاش من أجلها ودعا اليها فيما يلى : —

١ — ضرورة توحيد البشرية حول ايمان مجرد وبسيط بخالق هـذا الكون باعتباره سبب الأسباب .

٢ — وجوب جعل الحب والتراحم والتسامح أساس العلاقات البشرية .

٣ — شجب العنف وانكاره فى جميع صوره وأشكاله .

٤ — وجوب قصر ملكية الأراضى الزراعية على من يعملون فيها بأيديهم . والحد من شرور الملكية بصفة عامة .

المبـــدأ الأول

الايمان باله واحد هو سبب الأسباب :

يؤمن تولستوى باله واحد هو سبب الأسباب ولا يعترف بتفسيرات الأديان المختلفة وما تضيفه الى هذه الحقيقة من حواش وتفصيلات تبلبل الفكر وتحير الأذهان ، استمع اليه وهو يقول :

« تأمل معى اننى عندما أقول ان الله موجود ، لأنه السبب الأول للعالم ، فان باستطاعة كل انسان أن يتفق معى على هذه الحقيقة ، وهذا الاعتراف بوجـود الله يوحد بيننا ، ولكن عنـدما أقول ان الله هو براهما (١) ،

(١) براهما — اسم الاله الأكبر فى الديانة الهندوكية .

أو ياهوه [١] ، أو الاقانيم الثلاثة [٢] ، فان هذا الاله يفرق بيننا . ان بنى البشر يرغبون فى الاتحاد ومن أجل تحقيق هذه الوسيلة اخترعوا كل الوسائل التى تؤدى لهذا الاتحاد ولكنهم أهملوا الوسيلة الوحيدة التى لا يمكن أن تخطىء فى تحقيق هذا الاتحاد وهو البحث عن الحقيقة » .

وهو يكرر المعنى ذاته مشيرا الى الاسلام فى استعراضه فى خلال هـذه المناقشة مع القس فاسيلى عندما يقول :

« أين هى المتناقضات ؟ أتعتبرها متناقضات أن أقول ان الاثنين والاثنين يساويان أربعة ، أم هو تناقض قولى : انه يجب على الانسان أن يعامل الناس بما يجب أن يعاملوه به ، أم هو فى قولنا أن لابد لكل شىء فى هذه الحياة من سبب ؟ أهذه متناقضات ، أم هى حقائق ثابتة نعترف بها جميعا لأنها تتفق مع عقولنا ، ولكن عندما نقول ان الله قد ظهر على جبل سيناء لموسى ، أو ان بوذا طار الى السماء على أشعة الشمس ، أو أن محمدا ركب البراق فى ليلة المعراج [٣] ، أو أن المسيح قام من قبره فى اليوم الثالث وصعد الى السماء ، فهذه هى الأمور التى يختلف فيها البشر أشد الخلاف » .

وكان من الطبيعى ، أن لا ترضى الكنيسة المسيحية الأرثوذوكسية عن علاج الايمان بالله على هذه الصورة التى تهدم كل أساسها وكيانها ، فلم يتردد تولستوى فى مناصبة الكنيسة العداء ، ومهاجمتها ومهاجمة رجالها وأمرائها ، فى شجاعة نادرة ، فى وقت كانت الكنيسة فيه هى السيدة وصاحبة السلطان

---

(١) اسم الله كما ورد فى التوراة .

(٢) صفة الله كما تقول بها الكنيسة المسيحية .

(٣) يرى بعض علماء المسلمين ، استنادا الى حديث للسيدة عائشة ان المعراج كان بالروح لا بالجسد ، وهو ما يسقط كل حق فى الانكار . والحق ان انكار المعجزات يهدم الايمان من أساسه ، وليس كل الناس كتولستوى قادرين على الايمان العقلى المجرد . (المترجم)

فى روسيا باعتبارها دعامة النظام السياسى والاجتماعى ، ولكن تولستوى لم يحسب لذلك أى حساب ، بل لعله لم يقذع فى حق أحد كما أقذع فى وصف الكنيسة ومساوئها ومفاسدها ، ولم يتردد فى كيل ألفاظ السباب وكل صنوف المهانات للكنيسة ورجالها ، استمع اليه وهو يخاطب القس فاسيلى :

« هذا هو الأمر المروع ، انكم تريدون قيادة الناس ، ولكن يا سيدى يجب على كل واحد منا أن يعمل لانقاذ روحه هو ، وأن يؤدى رسالة الله فى نفسه أولا ، ولكنا بدلا من ذلك نروح نشغل أنفسنا بهداية الآخرين وانقاذهم . وما الذى نعلمه لتحقيق هذا الهدف ، اننا نعلمهم الآن ، فى نهاية القرن التاسع عشر ، ان المسيح فرض على كل انسان أن يعمد بالماء ، والا فلا يكون مسيحيا ، ونحملهم على الاعتقاد بهذا الحشد من الطقوس السخيفة التافهة التى نزعم أن عمليتى الغفران والتكفير اللازمين لخلاص البشر لا يتمان الا بها ، ثم هذا الاعتقاد بأن المسيح قام من الأموات وصعد الى السماء التى لا وجود حقيقى لها ، وهناك جلس الى يمين الأب ، لقد ألفنا هذه العبارات والأقوال ولكنها فى الحقيقة شىء فظيع جدا .. انها لجريمة ، جريمة منكرة كأشنع ما يمكن لانسان أن يرتكب من جرائم ، ونحن أو بالأحرى أنت وكنيستك — تفعلون ذلك ! عفوا سامحنى » .

وهو يقول للأب جراشيم الذى جاء يحاول أن يرده الى حظيرة الايمان بالكنيسة . « ولكن أينا المتكبر ؟ أنا الذى أعد نفسى انسانا كسائر البشر ، فيجب أن أعيش من كد عملى وأكسب قوتى من عرق جبينى وأعيش فقيرا كبقية البشر الفقراء ، أم هؤلاء الذين يتصورون فى أنفسهم أنهم قد انفردوا بالقداسة وتنزهوا عن الأخطاء ، واختصوا بمعرفة الحقيقة التى حجبت عن الآخرين ، ولهم وحدهم الحق فى تفسير أقوال المسيح على هواهم » .

ويبلغ تولستوى الذروة فى اظهار احتقاره للكنيسة ورجالها عندما يصرخ

على لسان بوريس طاردا قسيسا جاء ليقنعه بحلف اليمين والانضمام الى الجيش .

« أغرب عن وجهى ، اننى حزين من أجلك ، انه لا يسعنى الا أن اعترف لك فى صراحة أن الاستماع اليك يثير فى نفسى الاشمئزاز والتقزز .

لو أنك كنت كهذا الجنرال الذى كان يخاطبنى منذ لحظات ، لكان لى معك شأن آخر ، ولكنك جئت تحمل الى صليبا وانجيلا ، لتحملنى باسم هذا المسيح على انكار المسيح .

أغرب عن وجهى قلت لك ، دعنى وشأنى ، خذونى الى السجن حتى لا أرى أحدا » .

ونحسب أن أحدا لم يهاجم رجال الكنيسة فى روسيا بمثل هذا الأسلوب فلا عجب أن أصدرت الكنيسة قرارها بحرمان تولستوى وتجريده من المسيحية فى عام ١٩٠١ أى قبيل أخريات حياته ، ولكنا رأينا كيف أن الكنيسة سحبت هذا الحرمان عند وفاة تولستوى وتمسحت به بدعوى أنه عاد الى المسيحية . وان هى الا سبع سنوات بعد وفاة تولستوى ، حتى كانت الثورة الشيوعية تطيح بالكنيسة من أساسها وتقوض أركانها .

المبدأ الثانى

الحب أساس العلاقات البشرية :

الحب كأساس للعلاقات البشرية هو الأساس الذى قامت وتقوم عليه كل كتابات تولستوى وفلسفته ، وهذه المبادىء الثلاثة التى يدعو اليها من نفى العنف وتوزيع الأرض وتبسيط الايمان انما تنبثق من عاطفة الحب فى نفسه للآخرين ولبنى البشر ، فهو يتوجع للفقراء والمساكين بدافع من الحب ، وهو لا يرتضى العنف لأنه ينفى الحب ، وهو يرفض طقوس الكنيسة وتعاليمها وكل المبادىء الكهنوتية فى الأديان على اختلافها لأنها تهدر الحب والتعاطف والرحمة بين البشر . فهو اذ يندد بالكنيسة وتعاليمها يقول :

« هذا طفل صغير غض الاهاب ، مستعد لتقبل كل ما هو خير وجميل ، كل ما هو حق وحسن ، يسألنا ما هو العالم ، ما هى نواميسه وقوانينه ، وبدلا من أن نشرح له تعاليم الحب والحقيقة التى أعطيت لنا ، نروح نحشر فى رأسه كل السخافات والأمور المفزعة والدنيئة ، ناسبين ذلك كله الى الله ، أليس هذا فظيعا ، انها لجريمة منكرة كأشنع ما يمكن للانسان أن يرتكب من جرائم » .

وتولستوى يتمسك بمسيحية تتلخص فى عبارة واحدة هى « الله محبة » فهو لا يعرف من المسيحية الا أنها حب وعطف ، وهو يقبل منها هذا المبدأ ، وينكر كل ما عداه ، وقد حدد ذلك بوضوح ونصاعة على لسان بوريس ، عندما سأله عن دينه فقال له :

« اننى لست ممن يطلقون عليه اسم مسيحى أرثوذكسى » فلما استزاده الضابط ايضاحا أجابه « اننى أعتنق المسيحية كما هو منصوص عليها فى « موعظة الجبل » .

والمحور الذى تدور عليه موعظة الجبل هى الحب وأن الله محبة والحياة محبة وهى التى تتضمن الآيات المشهورة « أحبو أعداءكم وباركوا لاعنيكم » .

« من ضربك على خدك الأيمن فأدر له الأيسر » .

« من سخرك ميلا فامش له ميلين » :

فالحب وكل مشتقاته من رحمة وتسامح وغفران هو دين تولستوى الذى لا دين له غيره .

المبـــدا الثـــالث

عـــدم العنف :

أما دعوة تولستوى لعدم العنف وهى النتيجة الطبيعية لدعوته للحب والتسامح فقد عبّر عنها من خلال شخصية بوريس الذى رفض أن ينضم الى

الجندية لأنهم يطلبون منه « أن يدخل الجيش وأن يتعلم ويعد نفسه لارتكاب جرائم القتل على الرغم من أن ذلك حرام ومحظور سواء فى العهد القديم أو العهد الجديد ، وفوق ذلك فان ضميرى يأباه » .

وعندما سأله رجل البوليس عن وسائله لنشر هذه الدعوة ، وهل يؤمن بالثورة كسبيل لتحقيقها ، كان الجواب الحاسم القاطع :

« كلا بل اننى لست فقط لا أحبذ العنف ، بل اننى أعتبر استعماله خطيئة كبرى ، ولست أعترض على العنف فحسب ، بل ان مجرد الاستخفاء والعمل فى السر ، واستعمال الدهاء والختل والخديعة والتآمر كل هـذه وسائل وأساليب غير مشروعة وتؤلف خطيئة كبرى فى نظرى واعتقادى » .

وهو يذهب الى أبعد من ذلك كله فى شجب العنف عندما يقرر .

« لقد أعطى لنا العقل ، لنعرف أن النظام الاجتماعى لا يمكن حمايته بالقوة والعنف ولكن بالاحسان وحب الخير » .

المبـــدأ الرابع

الأرض لزارعيها :

أما بالنسبة لتوزيع الأرض على زارعيها وهو ما كرس تولستوى حياته من أجله ، فهو محور الرواية ، نراه يؤكده ويعلنه فى عزم واصرار منذ رفع الستار فى الفصل الأول حتى آخر مشهد فى الفصل الأخير ، فزوجته (مارى) تشـكو لأختها (الكسندرا) الانقـلاب الذى طرأ على حيـاة نيقولاس (تولستوى) وتفكيره فى توزيع الأرض ، وهى تجادل زوجها فى هـذه القضية ، وأولاده وأفراد الأسرة يساهمون فى هذا الجدل ، وتولستوى يأبى الا أن يسجل مشروعه على وجه الدقة فى خطاب يرسله لزوجته يقول لها فيه :

« ان خطتى هى هذه : سوف نعطى أراضينا للفلاحين محتفظين لأنفسنا بـ ١٣٥ فدانا بخلاف البستان وحديقة المنزل والمرعى الذى يجاور النهر .

وسنحاول أن نعمل بأنفسنا ، ولكننا لن نرغم أطفالنا أو أى شخص آخـــر للعمل معنا . وسوف يدر علينا القسم الذى سنحتفظ به خمسين جنيها فى السنة . وعلينا أن نهب المنزل ونحوله الى مدرسة ، أما نحن فنعيش فى الكوخ المؤلف من حجرتين حيث كان يسكن الجناينى » .

أما لماذا يوزع تولستوى كل أراضيه وأملاكه ولا يبقى لنفسه الا القدر الذى يستطيع زراعته بنفسه وبذراعه فقد عبّر عنه خلال فصول الرواية كلها بشتى الطرق والأشكال ، ولكن لعل تولستوى قد وصل الذروة فى الاحساس بالظلم الواقع على الطبقات الكادحة ، وهو يندد بأولاده وأفراد أسرته وقد رآهم مجتمعين حول البيانو يناقشون روائع الفن ، حيث بدأت تنهمر من فيه العبارات والكلمات وكأنها شواظ من نار :

« انك تقولين يا ليزا أن تونيا تعزف جيدا ، وأنتم هنا سبعة أو ثمانية من الشبان والشابات الذين يفيضون بالصحة والحيوية ، لقد نمتم حتى الساعة العاشرة ، لقد طعمتم وشربتم ، وما زلتم تأكلون ، وتعزفون وتتدارســـون الموسيقى وروائع النغم ، بينما الأمر هناك فى القرية التى جئت منها على التو ، كان الجميع قد استيقظوا فى الثالثة صباحا ليشرعوا فى عملهم ، أما هؤلاء الذين يرعون الخيل فانهم لم يناموا على الاطلاق ولم تغمض لهم عين طوال الليل . ان الجميع يعملون بغير استثناء ، الشيوخ والشبان ، المرضى منهم والضعفاء ، بل ان الأطفال والأمهات المرضعات يأخذن نصيبهن من العمل ، حتى الحبالى من النساء يكددن بآخر قواهن ، الجميع يعملون ، لكى يكون بقدرتنا نحن آن نجتمع هنا لنعزف الموسيقى ونأكل ثمرة كدهم وعرقهم . وليت الأمر يقف عند هذا الحد . بل انهم فى هذه اللحظات بالذات ، يقودون الى السجن الرجل الوحيد الذى يستطيع أن يكسب قوت أسرته ، لأنه قطع شجرة من مائة ألف شجرة من أشجار الصنوبر التى تنمو فى الغابة والتى يزعمون أنها ملكى . ونجلس نحن هنا ، متدثرين بملابسنا الثمينة والغالية ، بعد أن تناولنا

حمام الصباح وخلعنا ملابس الليل فى حجرات النوم ، ليتولى غسلها عنا عبيد أرقاء » .

هذه هى مبادىء تولستوى وتعاليمه الأربعة الرئيسية والتى ستراها مبسوطة فى وضوح ونصاعة من خلال هذه التمثيلية الرائعة .

هــدم سلطان الحكومة :

وهناك مبادىء أخرى وتعاليم، تحدث عنها تولستوى ودعااليها كتطبيقات للمبادىء السابقة من كراهية للعنف واحلال الحب والتعاون محل السجون والقيود والعقوبات وسلطان الحكومة والدولة ، ولكن الذى لا شك فيه أنها لم تكن واضحة فى نفسه وضوح هذه المبادىء الأربعة السابقة ، فهو لم يستطع أن يجزم فيها برأى ، ولم يقترح لها علاجا ايجابيا مكتفيا بالتنديد بها وما تنطوى عليه من مفاسد أى أنه ضرب المعول فى هدمها ، دون أن يحدد ما يقترحه بديلا عنها .

أما أول هذه المبادىء فهو عدم الاعتراف بالامبراطورية أو بالأحــرى سلطان الدولة وعدم الاعتراف بسلطان الحكومة وعدم الموافقة على قيام جيش أو بوليس .

ويتضح ذلك من رفض بوريس الانضمام للجيش وما رد به من أجوبة على ما وجهه اليه من أسئلة . كقوله :

« اننى أرفض أن ألبى رغبات البشر الذين يطلقون على أنفسهم اسم الحكومة » وعندما سأله ضابط البوليس « لابد أنك تعتبر نفسك تنتمى الى جنسية معينة » أجاب بوريس : كلا أنا لا أنتمى لأى شىء لأننى أعتبر نفسى انسانا خادما لله .

— ألا تعتبر نفسك عضوا فى الامبراطورية الروسية .

— اننى لا أعترف بأى امبراطورية .

وواضح من ذلك أن تولستوى لا يريد أن يعترف بالامبراطورية والجنسية الروسية بل لا يريد أن يعترف بالحكومة نفسها . ومع ذلك فهو لا يستطيع فى هذه الناحية أن يقطع ويجزم كما يفعل فى باقى قضاياه ، ويتجلى ذلك عندما يسأل كبير الأطباء بوريس :

« هل معنى ذلك أنك ترى : أن الحكومة والدولة ليستا ضرورتين ؟

بوريس — هذا ما لا أعرفه ، ولكن الذى أعرفه على وجه التحقيق هو أنه يجب أن لا أساهم بنصيب فى عمل الشر .

أما بالنسبة للجيش وهل يكون للدولة جيش أم لا فتولستوى لا يستطيع أن يرد برد قاطع على هذه القضية كذلك . فعندما يقول أحد الكتبة مناقشا بوريس « ولكن كيف تستطيع الأمة أن تمضى فى الحياة بدون جيش ؟ أن هذا مستحيل . فان بوريس يرد على هذا السؤال الواضح الصريح بعبارة غامضة ؟

« ليس من واجبنا أن نفصل فى هذه القضية ، ولكن واجبنا الأول هو أن نصدع بأوامر الله وأن نبادر بتنفيذ مشيئته » .

وعندما يحاجج كبير الأطباء بوريس بقوله :

« على الانسان أن يدافع عن وطنه ضد العدو » .

فان بوريس يرد على ذلك بقوله :

« لا يوجد الآن عدو يهاجم وطننا » .

ان تولستوى لم يستطع أن يفصل فى هذه القضية ، ولقد ختم الفصل الرابع من روايته دون أن يحسمها بل لعل القلق والتردد قد دب الى نفسه ، فبدأ يشك فى صواب ما يدعو اليه بعد أن رأى المصائب والنكبات تتوالى على كل من يحبهم من جراء اتباعهم لتعاليمه ..

هذه التعاليم التى عجز هو نفسه عن اتباعها ، مما جعله مستحقا لأن تصرخ فى وجهه البرنسيس شيرميشانوف قرب ختام الفصل الرابع ، قائلة :

كلا يا مستر سارتتوف لم يعد باستطاعتك أن تخدعنى ، لقد أصبحنا نعرفك الآن جيدا ، لقد حطمت ابنى ولكن ذلك لا يهمك ولا يعنيك ، الى حد أن تقيم الحفلات الراقصة فى بيتك ، وابنتك خطيبة ابنى ستتزوج زواجا موفقا سعيدا ينال بركتك ورضاءك ، فى الوقت الذى تتظاهر فيه بأنك تحيا حياة بسيطة وتروح تشتغل فى التجارة . أوه ! كم أنت بغيض الى نفسى وكريه بهذا الرياء والنفاق الذى أنت غارق فيه حتى الأذقان » .

وقد كان من شأن هذه الصيحة من قلب هذه الأم المكلومة أن تجعل نيقولاس يستعرض كل ما حاق بأصحابه من الكوارث والمحن فيتساءل : الأب فاسيلى فى تراجع وتقهقر ، وقد دمرت حياة بوريس ، وقد تخلت عنه ابنتى لوبا وها هى تتزوج بآخر ، هل يمكن أن أكون قد أخطأت الطريق ؟ ولكن أهو خطأ منى أننى آمنت بك وحدك يا الهى ؟ (وهنا يصرخ تولستوى كما صرخ المسيح من قبل) لا .. لا . ساعدنى يا أبتاه .

وعندما يطلق الرصاص على نيقولاس فى الفصل الخامس الذى مات تولستوى قبل أن يتمه وترك لنا نقاطه الرئيسية فقط ، فانه يسامح قاتلته ويعلن لمن جاءوا على صوت اطلاق النار ، انه انما يموت قضاء وقدرا .

وبعـــد

وبعد فقد كتب تولستوى هذه الرواية منذ ستين سنة على الأقل (١٩٠٢) والطغيان والاستبداد القيصرى على أشدهما ، والارهاب الدينى فى ذروته ، بحيث يمكن القول ان مجرد تصريح تولستوى بهذه المبادىء والأفكار ونشرها على رؤوس الاشهاد ثم بقاء رأسه بعد ذلك فوق كتفيه هو معجزة تولستوى الكبرى اذا كان لابد لكل قديس من معجزة .

واذا كانت دعوة تولستوى قد بدت فى ذلك الوقت البعيد ، دعوة خيالية أو مثالية ، أو على الأقل سابقة لأوانها ، أو كان لا يزال مقدرا للبشرية أن

تخوض حربين طاحنتين تهدر فيهما كل القيم الانسانية بل والحيوانية نفسها ، كان لا يزال مقدرا أن تسفك دماء خمسين مليونا من زهرة الشباب ، وأن تدمر مدن عامرة ، وأن يغرق مئات الملايين من البشر فى طوفان من الآلام والمحن والدموع والعرق ، وأن تكون روسيا بالذات فى كلتا الحربين هى صاحبة النصيب الأكبر من هذا الجحيم .

اذا كان ذلك كله قد كان فى ضمير الغيب عندما كتب تولستوى روايته ، فانى أرجو أن تكون ترجمة هذه الرواية فى هذه الأيام بعد انقضاء نصف قرن على وفاة تولستوى ، ونشرها لأول مرة باللغة العربية ، بعثا لهذه المبادىء العظيمة وتكون كما أرادها تولستوى حقا وصدقا بمثابة « نور يسطع فى الظلام » .

انتصار الدعوة الى عـــدم العنف :

ان دعوة عدم العنف التى طالما سخر بها الساخرون منذ نادى بها أول دعاتها « هابيل » وهو يقول لأخيه قابيل الذى هم بقتله « لئن بسطت الىّ يدك لتقتلنى ما أنا بباسط يدى اليك لأقتلك انى أخاف الله رب العالمين ، انى أريد أن تبوء باثمى واثمك » . لم يسقط علمها على الأرض أبدا بل ظل مرفوعا على مر الأجيال فمن اخناتون الى سقراط ، الى بوذا والمسيح فمحمد ابن عبد الله الذى بشر بها فى شعاب مكة ، قد أحرزت فى القرن العشرين أعظم انتصاراتها عبر التاريخ ، عندما أشهرها غاندى فى وجه الاستعمار كأمضى أسلحة التحرير .

وظفرت الهند باستقلالها وسط دهشة البشرية كلها ، فقد صدق ما قال غاندى من أنه لا يوجد عدو مهما كان جبروته لا يسقط صريعا أمام نيران الحب . وتقف اليوم الهند كأعظم قوة ديمقراطية فى العالم بفضل تعاليم غاندى ، وايمانه بعدم العنف .

وأندحرت قوى العدوان وارتدت عن بلادنا ، عندما تآمرت انجلترا وفرنسا واسرائيل على غزو بلادنا ، تحت ضغط قوة شعبنا المعنوية وشعوب العالم قاطبة ، التى أصبحت تتوق للسلام وتكره العنف ، وفى مقدمتها الشعب الانجليزى نفسه الذى كان حربا على حكومته فى الداخل . وانتصرت دعوة عدم العنف وثلاثة أرباع مستعمرات أفريقيا تتحول الى دول مستقلة تأخذ مكانها الى جوار الشعوب الحرة فى عضوية هيئة الأمم دون أن تطلق رصاصة واحدة ، أو أن تراق نقطة دم .

وانتصرت دعوة عدم العنف بتصفية أقوى معاقل العنف فى الجزائر ، والتى ما كانت لتستقل رغم كفاح شعبها البطولى ، لو لم يكن الرأى العـــام العالمى كله قد وقف يساندها ، ويعلن استنكاره لأساليب القمع والبطش .

وانتصار الدعوة الى عدم العنف هو النتيجة الطبيعية لتطور أســلحة الدمار ووسائل العنف ، فليس هناك اليوم بديل لسياسة عــدم العنف ، الا حرب ذرية لا تبقى ولا تذر ، تجعل من الحضارة الانسانية حصيدا كأن لم تغن بالأمس . لم تعد المسألة اليوم مسألة جيوش تتقدم أو تتأخر فيموت من يموت أو يجرح من يجرح ، لم تعد المسألة اليوم مسألة معارك ، ينتصر فيها الأكثر سلاحا وعدة ، بل أصبحت مسألة حياة أو موت لأمم وشعوب وقارات بأكملها .

ومن هنا تأخذ الدعوة لعدم العنف اليوم قوة جديدة ، ولا مناص للبشرية من احلال الدعوة الى التآخى والتسامح والحب فى ظل القانون العادل ، محل الدعوة الى الغلبة والسيادة وتأجيج نيران التعصب والحقد والغضب والأخذ بالثأر وتحريك الماضى ونكء الجروح القديمة .

ويجب أن تحل كل المشاكل الانسانية المتخلفة عن هذا الماضى البغيض سواء فى داخل الوطن الواحد ، أو فى الوطن الأكبر والأعم والأشمل ، على ضوء هذا المبدأ مبدأ عدم العنف .

لتكن الأرض قريتنـــا :

انني أقدم هذه السطور للمطبعة غداة انطلاق صواريخنا العربية المظفرة ، وبعد طواف ملاحى الفضاء الروسيين مجتمعين حول الأرض ، ايذانا بدخول الانسانية نهائيا فى عصر الفضاء ، حيث ينطلق الانسان من هذه القيود التى ربطته طويلا الى الأرض ، ليسبح فى هذا الكون اللانهائى الذى لا يمكن أن يضيق بسكان الأرض ، وهى ليست سوى قطرة من بحر أو ذرة من رمل صـــحراء .

لقد أصبح الكوكب الأرضى بطوله وعرضه لا يعدو أن يكون قرية الجنس البشرى ، يطويها فى ساعة ويسمع ويرى ما يجرى فى أرجائها فى لمحة ، ولا يمكن الا أن يتأثر بما يجرى فى أى ركن من أركانها ، ان خيرا فخير وان شرا فشر .

ان دعوة عدم العنف ،والدعوة الى الحب ، هى صيحة البقاء فى أيامنا هذه ، وهى ليست جديدة علينا ، فقد دعانا اليها القرآن العظيم وهو يقول « ادفع بالتى هى أحسن فاذا الذى بينك وبينه عداوة كأنه ولى حميم ، وما يلقاها الا الذين صبروا وما يلقاها الا ذو حظ عظيم » .

أو وهو يذكرنا بأصلنا الواحد المشترك ، وأننا ما جئنا لهذا الوجـــود الا لنتعارف ونتآلف ونتنافس فى عمل الخير .

« يا أيها النـــاس انا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا ، ان أكرمكم عند الله أتقاكم » .

وصدق الله العظيم .

الروضـــة ا . ح .

١٩٦٢/٨/٢٠

نور سطع في الظلام

دراما

(فى خمسة فصول واثنى عشر منظرا)

نقلها إلى العربية عن الإنجليزية

أحمد حسين

الترجمة الانجليزية من عمل لويز وألمرمود

أبطـــال الرواية

- نيقولاس ايفانوفتش سارنتوف (شخصية تولستوى)
- مارى ايفانوفا سارنتوف (ماشا) زوجته (شخصية زوجة تولستوى)
- لوبا } ابنتاهما
- مسّى }
- ســـتيبا ابنهما الكبير
- فانيــــا ابن أصغر
- كاتيا بنت أصغر
- الكسندر ميكالوفيتش ستاركوفسكى خطيب لوبا فى الفصل الرابع
- ميتروفان ارمليش : مربى فانيا
- مربية أسرة سارنتوف
- الكسندرا ايفانوفا كوخو فتسيفا
(الينا) : أخت مارى ايفانوفا
- بيتر سيمونوفتش كوخوفتسيف : زوج الكسندرا ايفانوفا
- لـــيزا ابنتهما
- الأميرة شيريمشا نوفا
- بوريس ابنهـــا
- تونيـــا ابنتهـــا
- الأب فاسيلى نيكونوريش : قسيس صغير
- ممرضة أسرة سارنتوف
- خدم رجال لدى أسرة سارنتوف
- ايفـــان زيابريف : فــــلاح
- فلاحـــة : زوجتـــه

ـ ملاشكا : ابنتهما ـ حاملة أخيها الطفل .

ـ بيتر : فـــلاح

ـ أحد رجال بوليس الأرياف .

ـ الأب جيراشيم : قسيس

ـ مسجل للعقود

ـ نجـــار

ـ باكـوف

ـ جـــنرال ـ مساعده

ـ كولونيل ـ كاتب الفرقة

ـ حارس ـ جنديان

ـ ضابط بوليس ـ كاتبـــه

ـ واعظ الفرقة

ـ رئيس الأطباء فى مستشفى الأمراض العصبية بالجيش

ـ طبيب مساعد

ـ حراس المستشفى

ـ مرضى فى المستشفى

ـ ضابط عاجـز

ـ عازف على البيانو ـ كونتس

ـ الكسندر بتروفيتش (رجل حاصـــل على بعض التعـليم ولكن الخمـــر حطمته ويحصـــل على بعض المســـاعدة من سارنتوف)

فلاحون ـ فلاحات ـ طلاب ـ سيدات ـ راقصون ـ راقصات

الفصل الأول

ـ المنظر الأول ـ

((يمثل المنظر الأول شرفة بيت ريفى جميل ، ومن وراء الشرفة ملعب للتنس ، وساحة للعبة الكرات الخشبية يحف بالمكان كله أحواض الزهور ، بعض الأولاد يلعبون مع مربيتهم لعبة الكرات الخشبية .

مارى ايفانوفا جالسة فى الشرفة الى جوار مائدة وضع عليها السيماور الخاص بعمل الشاى ، وابريق قهوة ، ومارى ايفانوفا هى سيدة الدار . وهى سيدة جميلة رشيقة فى سن الأربعين . وتجلس الى جوارها شقيقتها الكسندرا ايفانوفا وهى امرأة على شىء من البلادة ولكنها قوية الشكيمة فى سن الخامسة والأربعين وفى مواجهة السيدتين يجلس بيترسيمو نوفتش كوخوفستيف ، زوج الكسندرا وهو رجل بدين ضعيف الشخصية يرتدى بدلة صيفية ، ويضع منظارا ذا مشبك على أنفه)) .

(ترفع الستار على السيدتين وهما تشربان القهوة بينما يدخن بيتر)

الكسندرا ايفانوفا : لو كنت امرأة أجنبية بالنسبة لى ولست أختى ، ولو كان نيقولاس ايفانوفتش مجرد رجل أعرفه وليس زوج أختى فربما بدت تصرفاته لى مبتكرة فذة ، بل ولربما شجعته عليها باعتبارها لونا من ألوان الطرافة واللطف ، ولكن عندما أتصور أن زوج أختى هو الذى يتصرف بهذه الحماقة ، واعذرينى اذا وصفت تصرفاته بالحماقة ، فأنا لا أستطيع أن أخفى عنك حقيقة أفكارى ، انى امرأة صريحة ، ولن أتردد فى أن

أخبر زوجك نيقولاس نفسه بحقيقة رأيى فى تصرفاته ، فأنا لا أخاف أحدا .

ماري ايفانوفا : أنت محقة كل الحق ، وليس فيما تقولين ما يؤذى مشاعرى أو لست أرى الأمر واضحا كل الوضوح بنفسى ؟ ولكنى لا أظن أن الموضوع يستحق كل هذه الأهمية .

الكسندرا ايفانوفا : لا ترينه يستحق كل هذه الأهمية ؟ اذن دعينى أقول لك ، انك اذا تركت الأمور تسير طويلا على هذا المنهج ، فانك لن تلبثى أن تصبحى أنت وأولادك فى عداد المتسولات .

بيتر سيمونوفتش : مهلا .. مهلا ، كيف تتحدثين عن التسول وهم بكل هذا الدخل الذى يملكون ، لا .. لا .. يا عزيزتى .

الكسندرا ايفانوفا : (بحدة) أجل سيصبحون متسولين ، ومن فضلك يا عزيزى لا تقاطعنى ، انى أعرف أن أى تصرف ما دام من رجل ، فهو دائما محل موافقتك .

بيتر سيمونوفتش : أوه .. لست أدرى ، وانما كنت أقول ..

الكسندرا ايفانوفا : انك لا تعرف دائما ماذا تقول يا عزيزى ، انكم معاشر الرجال عندما تشرعون فى ممارسة حماقاتكم فليس يعلم سوى الله كيف وأين تنتهى .

ان ما أريد أن أقوله ، هو أننى لو كنت فى مكانك لما سمحت بوقوع ذلك ولوضعت حدا لهذه الحماقات .

ما الذى يعنيه بهذه التصرفات ؟ كيف يتصور العقل أن رجلا له مكانته الاجتماعية وله أسرته وأولاده يسرف ذات اليمين وذات الشمال ، ويهب كل شىء فى يده ، ويتخلى عن واجبات مركزه الاجتماعى .. آه .. اننى أعرف الى أين سينتهى هذا العبث .

بيتر سيمونوفتش : (مخاطبا مارى) : عفوا ، ولكن أرجـو أن تشرحى لى يا مارى ماهية هـذه الحركة الجديدة ؟ اننى أفهم طبعا الحركات التحررية والمجالس البلدية والدستور ، والمدارس . وحجرات المطالعات العامة .. الى آخر هذه المسائل ، كمسألة الاشتراكيين ، واضرابات العمال ، وتحديد ساعات العمل فى اليوم بثمان ساعات ، ولكن ما هى هذه الحركة الجديدة التى ينادى بها زوجك . أرجو أن تشرحيها لى .

مارى ايفانوفا : ولكنه حدثك عنها بالأمس .

بيتر سيمونوفتش : أعترف لك أننى لم أفهم شيئا مما قال ، لقد تحدث عن الأناجيل وعن موعظة الجبل ، وأن الكنائس غير ضرورية ، ولكن اذا كانت الكنائس غير ضرورية ، فكيف وأين يصلى الانسان .

مارى ايفانوفا : أجل ، هذا هو أسوأ ما فى الموضوع ، انه يريد أن يحطم كل شىء . دون أن يعطينا بديلا عنه .

بيتر سيمونوفتش : وكيف ابتدأت معه هذه الحالة ؟

مارى ايفانوفا : لقد بدأت فى العـام الماضى بعد وفاة أختـه مباشرة ، كان يحبها حبا شديدا ، فأثر موتها فى نفسه تأثيرا عميقا ، فأصبح حاد الطبع ، نفورا ، ثم بدأ يكثر من الحديث عن الموت ، ولم يلبث أن سقط فريسة مرض التيفوس ، كما تعلمون ، وعندما شفى من هذا المرض ، كان قد أصبح رجلا جديدا .

الكسندرا ايفانوفا : ومع ذلك فعندما جاء لزيارتنا فى موسكو فى الربيع كان لطيفا جدا ، ولعب معنا البريدج ، وكان عاديا فى كل تصرفاته كبقية الناس .

مارى ايفانوفا : ولكنه فى ذلك الوقت كان قد تغير تماما ولم يعد هو نفسه .

بيتر سيمونوفتش : من أى ناحية ؟

مارى ايفانوفا : لم يعد يولى الأسرة أى اهتمام أو رعاية ، واستولت عليه الفكرة الثابتة ، وأقبل على الأنجيل يطالعه بصورة متواصلة لا تكاد

تنتهى وأصبح قليل النوم ، وبدأ يعتاد الاستيقاظ فى الليـــل لكى يقرأ ويدون ملاحظاته ، ويقتبس عبارات وفقرات مما يقرأ ، ثم بدأ يخالط القساوسة والرهبان وأساقفة الكنيسة مستعلما منهم عن كثير من أمور الدين .

الكسندرا ايفانوفا : وهل كان يصوم ويهيىء نفسه للقداس ؟

مارى ايفانوفا : لا أذكر منذ تزوجنا من عشرين سنة ماضية أنه صام مرة واحدة ، أو تناول القربان ، فلما ألمت به هذه النازلة ، تناول القربان فى أحد الأديرة ، ولكنه عاد فقرر أنه يجب على الانسان أن لا يتناول أى قربان ، بل عليه أن لا يغشى الكنيسة بالمرة .

الكسندرا ايفانوفا : هذا يتفق مع رأيى فيه ، انه دائما يتناقض مع نفسه ، انه هوائى متقلب .

مارى ايفانوفا : هذا صحيح ، ففى هذه الفترة التى حدثتك عنها ، لم يكن يدع حضور القداس فى الكنيسة يوما واحدا ، وكان يداوم على الصيام بدون انقطاع ، وفجأة ينصرف عن ذلك كله ويقرر أن هذا الطراز من التدين لا لزوم له ، فماذا يستطيع الانسان أن يفعل مع رجل كهذا ؟

الكسندرا ايفانوفا : لقد خاطبته فى هذا الموضوع من قبل وســوف أحادثه فى الأمر ثانية .

بيتر سيمونوفتش : ومع ذلك فلست أحسب الأمر كبير الأهمية الى هذا الحد .

الكسندرا ايفانوفا : طبعا ليس الأمر كبير الأهمية بالنسبة لك ، لأنكم معاشر الرجال لا دين لكم .

بيتر سيمونوفتش :ألا تدعينى أتكلم ! ؟ اننى أقول ان هذه ليست هى النقطة الهامة فى الموضوع ، وانما النقطة هى أنه اذا كان ينكر الكنيسة ، فما حاجته الى الأناجيل اذن ؟

مارى ايفانوفا : انه لا ينكر الأناجيل بل على العكس من ذلك ، فهو يدعو

لأن نعيش وفق تعاليم الأنجيل وخاصة ما دعا اليه المسيح من مواعظ فوق الجبل ، وتطبيقا لذلك يقول أنه يجب أن نعطى للناس كل شيء .

بيتر سيمونوفتش : ولكن كيف يكون بقدرة الانسان أن يحيا اذا كان يعطى للآخرين كل شيء .

الكسندرا ايفانوفنا : وفى أى جزء من موعظة الجبل عثر زوجك على هذا التقليد السخيف من أننا يجب أن نصافح الخدم ؟ أجـل .. ان الانجيل يقول « مبارك الودعاء » ولكنه لم يقل شيئا عن مصافحة الخدم .

مارى ايفانوفنا : حقا ! لقد ترك نفسه يذهب بعيدا كما هو شأنه دائما فتارة فى الموسيقى ، وتارة فى الصيد ، ومرة فى المدرسة ، ان هذا هو طبعه وعادته ولكن معرفتى بذلك لا يهون الأمر على !

بيتر سيمونوفتش : لماذا ذهب اليوم الى المدينة ؟

مارى ايفانوفنا : لم يقل لى شيئا عن ذلك ، ولكنى أستطيع أن أعرف لماذا ذهب ، لا بد أنه ذهب بخصـوص هـذه الأشجار التى قطعت . فان الفلاحين يقطعون الأشجار الآن من غاباتنا .

بيتر سيمونوفتش : من أشجار الصنوبر ؟

مارى ايفانوفنا : أجل ! من أشجار الصنوبر ، وربما أرسل الفلاحون الى السجن بسبب ذلك ، وحكم عليهم فوق هذا بأن يدفعوا ثمن هـذه الأشجار . وقد حدد اليوم لنظر قضيتهم ، وانى متأكدة أنه ذهب الى المدينة لهذا الغرض .

الكسندرا ايفانوفنا : وسوف يشهد لمصلحتهم ، سوف يصفح عنهم ، ويكون معنى ذلك أنهم سيأتون غدا ليقطعوا أشجار حديقتكم هذه .

مارى ايفانوفنا : (تتنهد) أجل .. هذا ما سوف تنتهى اليه الأمور حتما ، كما حدث عندما كسروا أشجار التفاح ، وجاسوا خلال حقول القمح الأخضر ، ومع ذلك فقد سامحهم على كل شيء .

بيتر سيمونوفتش : غريب !!

الكسندرا ايفانوفا : وهــذا هو السبب فى قولى ان الأمور لا يمكن أن تستمر على هذا النحو ولا يجب أن تسمحى لها بالاستمرار ، ان واجبك كأم يحتم عليك أن تتخذى اجراءاتك فورا .

مارى ايفانوفا : ماذا باستطاعتى أن أفعل ! ؟

الكسندرا ايفانوفا : ماذا باستطاعتك ؟ حقا يا مارى ! أوقفيه عند حده . أفهميه أن ذلك لا يمكن أن يستمر ، ان لك أولادا وأطفالا . أى نموذج يقدمه لأولادك !

مارى ايفانوفا : فى الحق ، ان الأمر صعب علىّ جدا ، ولكننى أعالج الموضوع بالصبر عل الأمر يكون مجرد نزوة من نزواته السابقة لا تلبث أن تمر وتنتهى .

الكسندرا ايفانوفا : أجل ، ولكن المثل يقول « ساعد نفسك يساعدك الله » ويجب أن تشعريه أنه ليس حرا لكى لا يفكر الا فى نفسه فقط ، يجب أن يعرف أن ليس باستطاعة الانسان أن يعيش بهذا الأسلوب .

مارى ايفانوفا : (بأسى) ان أسوأ ما فى الموضوع أنه لم يعد يهتم بالأولاد ، وأصبح من واجبى أنا ، أن أدبر شئونهم ، وأن أتخذ كل القرارات الخاصة بتعليمهم ، وهى مهمة شاقة ، بل وعسيرة ، اذا قدرت أن نيقولاس الصغير يأبى الا أن أرضعه بنفسى ، فى الوقت الذى يحتاج فيه أولادنا الكبار سواء كانوا بناتا أو بنين الى رعاية وتوجيه ، والعجيب أنه كان فى الماضى أبا عطوفا يعنى بشئون أولاده حتى التافه منها ، أما الآن فقد انصرف عن ذلك كله . تصورى ، أننى قلت له بالأمس ان ابننا فانيا لا يذاكر دروسه كما ينبغى ، وانى أخشى عليه ألا ينجح ، فاذا به يقول لى ، ان من الأصلح له أن يترك المدرسة كلها .

الكسندرا ايفانوفا : يترك المدرسة ؟ ! الى أين ؟ !

ماری ايفانوفا : يتركهـا الى لا شيء ، وهـــذا هو الأمر الذى يفزعنى فى الموضوع ، لقد أصبحت كل تصرفاتنا فى نظره خطأ فى خطأ ومع ذلك فهو لا يقول لى ، ما هو الصحيح .

بيتر سيمونوفتش : هذا غريب جدا ! شاذ !

الكسندرا ايفانوفا : (بتهكم) وأين موضع الشذوذ فيما يفعل ؟ أليست هذه طريقتكم جميعا معاشر الرجال ، تجدون الأغلاط فى كل شىء ، ولا تفعلون أنتم شيئا .

ماری ايفانوفا : لقد أتم الآن ابننا ستيبا دراسته الجامعية ، وأصبح عليه أن يختار طريقه فى الحياة ، ولكن أباه لا يقول شيئا فى الموضوع ، وكأن الأمر لا يعنيه ، يريد ستيبا أن يلتحق باحدى الوظائف الحكومية ، ولكن نيقولاس ايفانوفتش يعترض على ذلك ، ويقول انه يجب على ستيبا أن لا يقدم على ذلك .

وعلى هذا فقد فكر ستيبا فى الالتحاق بسلاح الفرسان ، ولكن نيقولاس ايفانوفتش استهجن ذلك أيضا ، فسأل الولد أباه ماذا يجب علىّ أن أفعله اذن ؟ لا أظنك تفكر فى أن أذهب لأشتغل فلاحا وأحرث الأرض فى نهاية الأمر ؟ ! فاذا بنيقولاس ايفانوفتش يقول له ، ولماذا لا تكون فلاحا وتزرع فى الأرض ، ان ذلك أفضل بكثير من أن تكون موظفا فى الحكومة . وكان من الطبيعى ازاء هذا الرد أن يجىء الىّ ستيبا وأن يسألنى رأيى فى الموضوع ، ويجب علىّ أن أقرر كل شىء بينما السلطة كلها فى يد أبيه .

الكسندرا ايفانوفا : هذا غير معقول ! يجب عليك أن تتكلمى مع نيقولاس فى صراحة وفى غير مواربة .

ماری ايفانوفا : أجل ، هذا هو واجبى من غير شك ، وانى لفاعلة .

الكسندرا ايفانوفا : قولى له بطريقة حاسمة جازمة أنك لا تستطيعين المضى على

هذا الأسلوب انك تقومين بواجبك وعليه آن يقوم بواجبه ، فان لم يفعل فعليه أن يسلم لك كل شيء .

ماری ایفانوفا : ان الأمر كاه مدعاة للأسف ومثير للشجون .

الكسندرا ايفانوفا : اذا شئت فأنا على استعداد أن أحادثه بنفسي في الموضوع وأجابهه بالحقيقة كلها .

(يدخل قسيس شاب يبدو عليه الارتباك متوتر الأعصاب يحمل كتابا ويصافح الحاضرين) .

القس : لقد حضرت لأقابل نيقولاس ايفانوفتش أو بالأحرى لأرد له كتابا .

ماری ایفانوفا : لقد ذهب الى المدينة ولكنه سيعود سريعا .

الكسندرا ايفانوفا : ترى أى كتاب هذا الذى ستردہ اليه ؟

القس : انه كتاب حياة المسيح لرينان .

بيتر سيمونوفتش : يا الهى ! أى كتب الحادية تلك التى تقرأها ؟

القس : (وقد زاد ارتباكه — يشعل سيجارة) — لقد أعطانيه نيقولاس ايفانوفتش لأطالعه .

الكسندرا ايفانوفا : (باحتقار) أعطاه لك نيقولاس ايفانوفتش ! وأنت ياحضرة القس ؟ هل أنت موافق على آراء نيقولاس ايفانوفتش ومسيو رينان ؟

القس : لا .. طبعا .. لا ، والا فاذا كنت أوافق فما كان ينبغى ، فى الواقع ، أن أكون أحد خدام الكنيسة .

الكسندرا ايفانوفا : ولكن اذا كنت كما يقولون خادما من خدام الكنيسة فلماذا ياحضرة الخادم الأمين لا تهدى نيقولاس ايفانوفتش ؟

القس : لكل انسان ، فى الواقع ، وجهة نظره فى هــذه المسألة ، ونيقولاس ايفانوفتش — فى الواقع — يتمسك بكثير ممــا هو ظاهر

الحق ، ولكنه — فى الواقع — ينحرف فى المسألة الرئيسية وأعنى بها الكنيسة .

الكسندرا ايفانوفا : (باحتقار) وما هى هذه الأشياء الكثيرة الظاهرة الحق التى يتمسك بها نيقولاس ايفانوفتش ؟ أصحيح أن موعظة الجبل تأمرنا بأن نعطى أملاكنا للغرباء ، ونجعل أفراد عائلاتنا يتسولون ؟

القس : ان الكنيسة — فى الواقع — تحمى الأسرة والآباء المقدسون للكنيسة — فى الواقع — باركوا الأسرة ، ولكن الحق أن المثالية العالية تتطلب منا نبذ الكثير من المظاهر والمتع الدنيوية .

الكسندرا ايفانوفا : طبعا لقد سلك الرهبان والنساك هذا الطريق ولكن بالنسبة للأحياء العاديين فأحسب أن كل ما ينبغى عليهم هو أن يسلكوا سلوكا عاديا كما يليق بكل المسيحيين الطيبين .

القس : — فى الواقع — لا يستطيع الانسان أن يعرف عند أى حد يمكن أن يوصف بأى وصف .

الكسندرا ايفانوفا : وطبعا أنت متزوج ؟

القس : أوه .. نعم .

الكسندرا ايفانوفا : ولك أولاد ؟

القس : اثنـــان .

الكسندرا ايفانوفا : (باستهجان) فلماذا ياحضرة القس لم تنبذ المتع الدنيوية وتتخلى عنها بدلا من أن تتزوج وتدخن السجاير ؟

القس : ذلك بسبب ضعفى — فى الواقع — بسبب عدم جدارتى .

الكسندرا ايفانوفا : آه .. اننى أرى بوضوح أنه بدلا من أن تعيد نيقولاس ايفانوفتش الى الصواب ، فقد أصبحت أنت من أنصاره ، ودعنى أقولها لك بكل صراحة وفى غير مواربة انك مخطىء كل الخطأ .

(تدخل حاضنة الطفل)

الحاضنة : أو لا تسمعين عويل الطفل ؟ أرجوك أن تأتى لارضاعه .

مارى ايفانوفا : أنا قادمة .. أنا قادمة .. (تنهض وتخرج) .

الكسندرا ايفانوفا : ما أشد حزنى من أجل أختى ،لقد أصبحت أرى مقـدار ما تعانيه . ان عليها أن تربى سبعة أولاد وترضع بنفسها واحدا منهم ويجب عليها فوق ذلك أن تواجه كل هذه الحماقات والسخافات .
ان مما لا شك فيه عندى أن لديه شيئا من الخلل هنا (تلمس مقـدم رأسها — ثم تخاطب القس) — والآن يا سيدى القس هل لك أن تقول لى شيئا عن هذا الدين الجديد الذى اكتشفتموه .

القس : لست أفهم — فى الواقع ..

الكسندرا ايفانوفا : (مقاطعة) — أوه .. من فضلك لا تحاورنى ، أنت تعرف جيدا ما أسألك عنه .

القس : ولكن اسمحى لى ..

الكسندرا ايفانوفا : (مقاطعة) ، اننى أسألك أى دين هذا الذى يأمرنا أن نصافح كل فلاح نلقاه ، ونسمح لهم بأن يقطعوا أشجارنا ويسرقوها ، وأن نعطيهم نقودا ليشربوا الفودكا ، وتتخلى عن أولادنا وعن عائلاتنا ؟

القس : لست أعرف أن ..

الكسندرا ايفانوفا : (مقاطعة) ، انه يقول أن هذه مسيحية ، وبصفتك قسيسـا أورثوذكسيا من الكنيسـة الشرقية ، فان باستطاعتك أن تقول لى اذا كانت المسيحية تأمرنا أن نشجع السرقة ؟

القس : ولكنى ....

الكسندرا ايفانوفا : (مقاطعة) ، والا فلماذا أنت قسيس ، ولماذا تطيـل شعرك اذن ، وترتدى ملابس الكهنوت ؟!

القس : ولكن أحدا لم يسألنا ....

الكسندرا ايفانوفا : (مقاطعة) ، لم يسألكم أحد ؟ حقا ؟!

ولكن هأنذا أسألك ، لقد قال لى بالأمس أن الأناجيل تقول « اعط من سألك » ، فما معنى هذه الآية ، وعلى أى أساس يجب أن تفسرها ؟

القس : يجب أن تفسر بمعناها الواضح البسيط على ما أظن !

الكسندرا ايفانوفا : وأنا لا أظن ، امكان تفسيرها بالمعنى البسيط الذى يدل عليه ظاهر الآية ، لقد تعلمنا دائما أن الله قد خلقنا درجات ورفع بعضنا فوق بعض وحدد لكل انسان مركزه .

القس : طبعا ، ومع ذلك ....

الكسندرا ايفانوفا : (مقاطعة) ، آه ، ان الأمر كما قيل لى تماما ، لقد أصبحت تأخذ جانب نيقولاس ايفانوفتش ، ولكنى أقول لك بكل صراحة ، ان هذا خطأ ، ولو كان الذى يصغى له ، ويتأثر بأقواله ، مدرس صغير فى احدى المدارس ، أو شاب مراهق ، لكان ذلك فى حد ذاته أمرا مؤسفا ، أما أن تكون أنت من تصغى له فى مثل سنك هذا ومركزك ! لقد كان من الواجب عليك أن تقدر المسئوليات الملقاة على عاتقك ، أكثر من ذلك .

القس : اننى أحاول أن ....

الكسندرا ايفانوفا : ما هو هذا الدين الذى يسمح له أن لا يذهب الى الكنيسة ولا يؤمن بالقربان المقدس ؟ وبدلا من أن ترجعه الى صوابه فأنت تقرأ معه رينان وتفسران الأناجيل بطريقتكم الخاصة .

القس : (فى اضطراب) ، أنا لا أستطيع الرد ، أنا — فى الواقع — مشوش ومضطرب ولذلك فسأمسك لسانى .

الكسندرا ايفانوفا : آه ، لو أننى كنت رئيسك ، لعلمتـــك كيف تطالع رينـــان وتشرب السجاير .

بيتر سيمونوفتش : (محتجا) — كفى .... كفى بحق السماء ، بأى حق تخاطبينه هكذا ؟

الكسندرا ايفانوفا : من فضلك لا تعلمنى ماذا أقول وكيف أتصرف . أنا واثقة أن الأب المحترم ليس غاضبا منى ، وما هو الحرج فى أن أتكلم معه بصراحة ؟! ألا يكون الأمر أشد سوءا لو أننى كتمت غضبى ؟! ، أليس كذلك أيها الأب ؟

القس : أرجو أن تسامحينى اذا كنت لم أحسن التعبير عن نفسى كما كان يجب .

(فترة سكون ـ حالة من القلق ـ) ، (تدخل لوبا وليزا ـ ولوبا هى ابنة مارى ايفانوفا ، وهى فتاة جميلة رشيقة نشطة فى سن العشرين ، وليزا هى ابنة الكسندرا ، وهى تكبر لوبا قليلا ، والاثنتان يلفان رأسيهما بالمناديل (اشاربات) ويحملان سلتين لجمع نبات عش الغراب ، تحييان · الكسندرا ايفانوفا وبيترسيمونوفتش والقس) ·

لـــوبا : أين ذهبت أمى ؟

الكسندرا ايفانوفا : ذهبت لترضع الطفل .

بيتر سيمونوفتش : (للفتاتين) ، تذكرا أنه يجب عليكما احضار الكثير من عش الغراب ، لقد أحضرت هذا الصباح فتاة قروية صغيرة بعض أصناف ممتازة وفاخرة من النوع الأبيض ، ولو لم تكن الدنيا حرا لجئت معكم بنفسى .

لـــيزا : تعالى معنا يا أبى .

الكسندرا ايفانوفا : أجل ، لم لا تذهب معهم ؟ ان بعض الحركة تنفعك بعد أن أصبحت بدينا جدا .

بيتر سيمونوفتش : حسن ، أظن أنه من الخير أن أحضر معكم ، ولكن عليكم أن تنتظروا قليلا حتى أحضر معى بعض السجاير ، (ويخرج) .

الكسندرا ايفانوفا : وأين ذهب الأولاد الصغار ؟

لـــوبا : أخى استيبا ركب دراجته وذهب الى المحطة ، والمدرس ذهب

الى المدينة برفقة والدى والأولاد الصغار يلعبون بالكرات الخشبية . أما أخى فانيا ، فيلعب فى الحديقة مع الكلاب .

الكسندرا ايفانوفا : حسنا ، وهل استقر استيبا على شىء ؟

لـــوبا : أجل ، لقد ذهب بنفسه لتقديم طلب الالتحاق الى ســلاح الفرسان . لقد كان فظا جدا مع والدى بالأمس .

الكسندرا ايفانوفا : ان الولد معذور ، فقد كان الأمر صعبا بالنسبة له ، وهنــاك حد للاحتمال البشرى ، ان ستيبا يريد أن يبدأ حيــاته ، ثم يقال له أن يذهب ليحرث الأرض !

لـــوبا : ان أبى لم يقل ذلك ، لقد قال ...

الكسندرا ايفانوفا : (مقاطعة) ، على أية حال ان من حق استيبا أن يبدأ حيــاته وأبوك يرفض كل اقتراحاته فى هذا الشأن .... ولكن ها هو قــد جاء بنفسه ....

(يتنحى القس جانبا ويشرع فى قراءة الكتاب الذى يحمله ـ يدخل ستيبا على ظهر دراجته متجها نحو الشرفة) .

الكسندرا ايفانوفا : لم نكد نتحدث عن الشمس حتى طلع علينا نورها [1] ، لقد كنا نتحدث عنك يا ستيبا ، تقول أختك لوبا ، انك كنت فظا جدا ، مع والدك بالأمس .

ســتيبا : هذا غير صحيح ، فلم يحدث بيننا شىء غير عادى ، لقــد قال لى رأيه وقلت له رأيى ، وليس الذنب ذنبى اذا كانت آراؤنا قــد اختلفت ، ولكن لوبا كما تعرفين لا تفهم شيئا ، ومع ذلك فتحب أن تبدى رأيها فى كل شىء .

الكسندرا ايفانوفا : وعلام عولت أخيرا بالنسبة لمستقبلك ؟

---

(١) لعل الترجمة المناسبة لهذه الجملة لا تتحقق بغير المثل العامى الســائر (جبنا سيرة القط ، جه ينط) . ولكنا التزمنا هنا وفى كل الرواية الترجمة الحرفية حتى فى ترتيب الجمل مما قد يخالف الذوق فى العربية خوفا من العبث بالنص .

ســتيبا : لست أعرف ما الذى قرره أبى فى الموضوع ؟
وأخشى ما أخشاه أنه لا يعرف هو نفسه ماذا يريد بالضبط ، أما بالنسبة لى ، فقد قررت نهائيا أن أتطوع للالتحاق بسلاح الفرسان ، دون أن آبه للاعتراضات الشاذة التى أصبحت تثار فى بيتنا ضد كل شىء ، وضد كل خطوة تتبع ، فان الأمر فى نظرى فى منتهى البساطة ، ولا يحتمل أى اعتراض ، أو جدل . لقد أتممت دراستى ويجب أن أستغل وقتى . ولو أننى التحقت باحدى فرق الجيش العامل لأمضيت وقتى مع ضباط سكارى من غير طبقتى ، وهو أمر لا يدخل السرور على نفسى ، ولذلك فقد اعتزمت أن ألتحق بسلاح الفرسان ، حيث يوجد أصدقائى وقرنائى .

الكسندرا ايفانوفا : هذا حسن ، ولكن ما الذى يجعل والدك يرفض الموافقة على هذا المسلك ؟!

ســتيبا : أبى ! ما جدوى الحديث عنه ؟
لقد تملكته فكرة ثابتة جعلته لا يرى الا ما يريد أن يرى ، انه يقول ان الخدمة العسكرية هى أحط أنواع الوظائف ، فيجب على الانسان أن ينأى بنفسه عنها ، ولذلك فهو يرفض اعطائى أى نقود على سبيل الاعانة، لأتمكن من الالتحاق بسلاح الفرسان .

لــيزا : لا .... لا يا ستيبا ، ان أباك لم يقل ذلك ، انت تعلم أنى كنت حاضرة ، لقد قال لك ، اذا كان حتما عليك أن تؤدى واجبك العسكرى ، فيجب عليك أن تنتظر حتى يأتى دورك وتستدعى ، أما أن تتطوع من تلقاء نفسك فان معنى ذلك أنك قد اخترت هذا النوع من الخدمة بملء حريتك .

ســتيبا : ولكن أنا من سيلتحق بالخدمة العسكرية ، وليس هو .
أو لم يكن هو نفسه ضابطا فى الجيش ؟

ليـــزا : أجل ، وهو لم يقل على وجه التحديد انه لن يعطيك النقود ، ولكنه قال انه لن يساهم فى أمر ضد معتقداته الشخصية .

ستـــيبا : لا دخل للمعتقدات فى هذا الموضوع ، ان الانسان يجب عليه أن يلتحق بالخدمة العسكرية ، وهذا هو كل ما فى الأمر .

ليـــزا : أنا أقول ما سمعته بأذنى .

ستـــيبا : وأنا أعرف أنك توافقين والدى على ما يقوله دائما . هـل تعرفين يا خالتى أن ليزا تأخذ جانب والدى على طول الخط ....

ليـــزا : الحقيقة أننى ....

الكسندرا ايفانوفا : (مقاطعة) ، أو لست أعرف أنا نفسى أن ليزا تتحمس دائما لكل ما هو سخيف ولا معنى له . ان رائحة الكلام الفـارغ والهذيان تفوح منها من مسافات بعيدة .

(يدخل فانيا حاملا برقية فى يده تتبعه الكلاب وهو يرتدى قميصا أحمر) .

فانيـــا : لوبا (معاكسا) ، احذرى من القادم ؟

لـــوبا : ما فائدة التخمين ، اعطنى البرقية .

(تحاول أخذ البرقية ولكن فانيا يبتعد عنها ولايســـمح لها بذلك)

فانيـــا : لن أعطيها لك ، ولن أقول ممن جاءت ، لقد أرسـلها بعض الناس الذين يجعلون وجهك يحمر .

لـــوبا : هذيان ! قل لى ممن البرقية ؟

فانيـــا : (هاتفا) ، ها هو وجهك يحمر ! خالتى انظرى اليها ، ألم يحمر وجهها ؟

لـــوبا : يا لك من سخيف ! من الذى أرسل البرقية ؟ ممن البرقيـة يا خالتى ؟

الكسندرا ايفانوفا : (مطالعة البرقية) ، من الشيرميشانوف .

لــــوبا : آه !

فانيـــا : (صائحا فى انتصار) ، آه .... هذه انت ! لماذا يحمر وجهك؟

لــــوبا : دعينى أر التلغراف يا خالتى — (تقرأ)

« نصل ثلاثتنا بقطار البريد — شيرميشانوف — »

ان هـــذا يعنى البرنسيس وبوريس وتونيا . حســن ، لا أستطيع أن أكتمكم أننى مسرورة ...

فانيـــا : هذه أنت .... أنت مسرورة ! أنظـر يا ستيبا ، كم أصبح وجهها أحمر .

ســـتيبا : (زاجرا أخاه) ، فانيا ، كفى سخفا ، تعاكس ... ثم تعود للمعاكسة . ما هذا ؟

فانيـــا : طبعـــا ، لا بد أن تدافـع عن لوبا ، لأن حضرتك بدورك تستلطف تونيا أخت بوريس ، يظهر انكم ستكونون مضطرين لاجـراء القرعة بينك وبين بوريس ، أيكما الذى سيتزوج أخت الآخر (١) ؟

ســـتيبا : ألا تكف عن هذا التهريج ؟ اسكت ، كم مرة قيـل لك أن تكف عن التهريج ؟

لـــيزا : اذا كانوا سيصلون بقطـار البريد ، فلا بد أنهم سيكونون هنا حالا .

لــــوبا : هذا صحيح ، وعلى ذلك فلم يعد باستطاعتنا أن نذهب لجمع عش الغراب .

(يدخل بيترسيمونوفتش حاملا سجائره) .

لــــوبا : عمى بيتر ، اننا لن نذهب .

(١) كانت التقاليد فى روسيا فى ذلك الوقت تحول دون زواج الرجل أخت زوج شقيقته .

بيتر سيمونوفتش : ولماذا ؟

لـــوبا : لأن الشيرميشانوف سيصلون حالا ، فمن الأفضل أن نلعب التنس فى انتظار حضورهم . هل تلعب معنا التنس يا ستيبا ؟

ســـتيبا : لا مانع عندى .

لـــوبا : أنا وفانيا ضدكما أنت وليزا ، اتفقنـــا ؟ سأحضر الكرات وأنادى الأولاد . (تخرج)

بيتر سيمونوفتش : معنى هذا أننى سأظل هنا باقيا فى نهاية الأمر ؟

القس : (يتهيأ للانصراف) تقبلى احتراماتى يا سيدتى .

الكسندرا ايفانوفا : بل أرجوك أن تبقى قليلا يا أبى فانى أريد أن أتحدث معك فضلا عن أن نيقولاس ايفانوفتش سيكون هنا حالا .

(يجلس القس ويشعل سيجارة ثانية) .

القس : انه قد يتأخر بعض الوقت .

الكسندرا ايفانوفا : ها هو ، اننى أسمع صوت أحد الأشخاص يقترب ، وأغلب ظنى أنه هو .

بيتر سيمونوفتش : (مخاطبا زوجته) ، أى شيرميشانوفا تقصدون ؟ أهى ابنة جولتزن .

الكسندرا ايفانوفا : طبعا هى بذاتها يا عزيزى ، ألا تعرفها ؟ انهـــا شيرميشانوفا التى كانت تعيش فى ايطاليا مع خالتها .

بيتر سيمونوفتش : مرحى ، مرحى ، سوف أكون سعيدا برؤيتها . اننى لم أرها منذ تلك الأيام فى روما حيث كنت أغنى معها بعض الأدوار ، انها تغنى بجمال ، ان لها طفلين ، أليس كذلك ؟

الكسندرا ايفانوفا : أجل ، وهما قادمان معها أيضا .

بيتر سيمونوفتش : لم أكن أعرف أنهما على صلة وثيقة بأختك وزوجها .

الكسندرا ايفانوفا : لا يمكن تسمية ما بينهما صلة وثيقة ، ولكنهم عاشوا معا فى

الخارج طوال العام الماضى ، ويظهر أن البرنسيس وضعت عينها على لوبا كزوجة لابنها موريس ، انها امرأة بارعة تعرف كيف تتصيد بائنة (دوطه) ممتازة لابنها .

بيتر سيمونوفتش : ولكن الشيرميشانوف أنفسهم كانوا أغنياء .

الكسندرا ايفانوفا : كانوا ! أما الآن فهم ليسوا كذلك ، حقا ان البرنس لا يزال على قيد الحياة ، ولكنه أضاع كل شيء فى السكر والعربدة ، حتى دمر نفسه نهائيا . وهذا ما جعل زوجته الأميرة تقدم التماسا الى القيصر ، وتركت زوجها ، وهى تحاول الآن أن تنقذ بعض مخلفات ثروتهم . ولكنها من ناحية أخرى ، قد استطاعت أن تعلم ولديها تعليما ممتازا ، يجب أن يعترف لها الانسان بهذه الفضيلة ، فابنتها تونيا موسيقية ممتازة ، أما ابنها بوريس فشاب بهى الطلعة ، جذاب وقد استطاع أن يتم تعليمه الجامعى . على انى لا أظن أن أختى مارى سترحب بهذه الزيارة فى الوقت الحاضر ، فهو غير مناسب .

(تلمح نيقولاس ايفانوفتش قادما) .

آه ، هذا نيقولاس ايفانوفتش قادما .

(يدخل نيقولاس ايفانوفتش) .

كيف حالك يا الينا [1] ، وانت يا بيتر سيمونوفتش .

(للقس) آه ! فاسيلى نيكانورتش (يصافحه) .

الكسندرا ايفانوفا : لا يزال هناك بعض القهوة ، هل أملأ لك فنجانا ؟ انه بارد تقريبا ، ولكن من السهل تسخينه (تدق الجرس)

نيقولاس ايفانوفتش : كلا ، أشكرك ، لقد تناولت ما فيه الكفاية . أين مارى ؟

الكسندرا ايفانوفا : ترضع ابنها

نيقولاس ايفانوفتش : أهى فى صحة طيبة ؟

---

(١) الينا : اسم التدليل لالكسندرا .

الكسندرا ايفانوفا : على ما يرام ، وأنت هل انتهيت من أشغالك فى المدينة اليوم؟

نيقولاس ايفانوفتش : أجل لقد فعلت (محاولا تغيير الموضوع) اذا كان لا يزال لديك بعض القهوة أو الشاى . فسوف آخذ قليلا .

(مخاطبا القس) ، آه ، لقد أحضرت الكتاب ثانيا ، هل فرغت من قراءته؟ أتعرف اننى كنت أفكر فيك طوال الطريق الى هنا ؟

(يدخل خادم فينحنى باحترام ، يصافحه نيقولاس ايفانوفتش، تهز الكسندرا ايفانوفا كتفيها امتعاضا من هذه الحركة وتتبادل النظرات مع زوجها) .

الكسندرا ايفانوفا : (للخادم) ، أعد تسخين السيماور من فضلك .

نيقولاس ايفانوفتش : ليس هذا ضروريا يا ألينا ، أنا فى الحقيقة لست محتاجا لشىء ولذلك فسأشربه كما هو .

(عندما ترى ميسّى أباها تدع كراتها الخشبية وتسرع للتعلق بعنقه) .

ميسى : بابا . تعال العب معى .

نيقولاس ايفانوفتش : (مدللا اياها) ، حاضر ، حاضر سأجىء حالا وألعب معك ، ولكن دعينى أولا آكل بعض الشىء ، أما الآن فاذهبى والعبى وسوف أحضر لك حالا

(تخرج ميسّى)

(يجلس نيقولاس الى المائدة ويشرب ويأكل بشهية) .

الكسندرا ايفانوفا : حسن ؟ هل حكم عليهم ؟

نيقولاس ايفانوفتش : أجل ، لقد حكم عليهم ، لقد اعترفوا بأنهم مذنبون (محاولا تغيير موضوع الحديث . مخاطبا القس) . اننى متصور أنك لن تجد رينان مقنعا ....

الكسندرا ايفانوفا : وأنت ألا توافق على الحكم عليهم ؟

نيقولاس ايفانوفتش : (مغتاظا) . طبعا لا أوافق على الحكم عليهم ، (للقس) ، ان المسـألة المهمـة بالنسبة اليك ليست هى ألوهيـة المسيح أو تاريخ المسيحية فيما أعتقد وانما الذى يعنيك فى الدرجة الأولى هو نظرية رينان فى الكنيسة من حيث .....

الكسندرا ايفانونا : هلا حدثتنى كيف تم الأمر فى المحكمة ؟ لقد اعترفوا بذنبهم وانهم سرقوا ، ولكنك كذبتهم فى ذلك ، وقلت انهم لم يسرقوا ، ولكنهم أخذوا الخشب فقط ، أليس كذلك ؟

نيقولاس ايفانوفتش : (الذى كان قد بدأ يتحدث مع القس يتجه بعزم وتصميم) نحو الكسندرا ايفانوفا)

ألينا يا عزيزتى ، أرجوك ألا تلاحقينى بغمزاتك ولمزاتك .

الكسندرا ايفانوفا : ليس هذا قصدى بالمرة ...

نيقولاس ايفانوفتش : واذا كنت تريدين حقا أن تعرفى لماذا لا أستطيـع أن أتهم هؤلاء الفلاحين الذين قطعوا بعض الأخشاب لأنهم احتاجوها .....

الكسندرا ايفانوفا : انى أظن أنهم يحتاجون أيضا هذا السيماور

نيقولاس ايفانوفتش : (وقد ضـاق ذرعا) ، حسن ، اذا كنت تريدين أن أقول لك لماذا لا يمكننى أن أوافق على سجن هؤلاء القوم ، وتدمير حياتهم ، لأنهم قطعوا عشر شجرات من الغابة التى أعتبرها ملكى .....

الكسندرا ايفانوفا : انها معتبرة ملكا لك فى نظر جميع الناس .

بيتر سيمونوفتش : (ملطفا الجو) أوه يا عزيزتى ، أنزاع من جديد !

نيقولاس ايفانوفتش : حتى لو اعتبرت الغابة ملكى ، وهو الأمر الذى لا أقدر على اساغته ، فان لدينا ثلاثة آلاف فدان من الغابات ، وفى كل فدان تنمو مائة وخمسون شجرة ، أى أن مجموع الشجرات فى هذه الغابة هو أربعمائة وخمسون ألف شجرة ، أليس هذا حسابا مضبوطا ؟ حسن جدا ، لقد

قطعوا من هذا العدد الضخم عشر أشجار ، أى بنسبة واحد على خمسة وأربعين ألفا ، فهل هذا يساوى تدمير حياة انسان ، بل أسرة بكاملها ، وهل باستطاعتى أن أتحمل هذه المسئولية ، مسئولية انتزاع هذا الرجل من أسرته ، والزج به فى السجن لهذا السبب ؟ .

ستيبا : مهلا .. ولكنك اذا لم تتمسك بهذا الواحد على خمسة وأربعين ألفا ، فان كل الأربعة والأربعين ألفا ، والتسعمائة والتسع وتسعين الباقية ، سوف تقطع وتؤخذ كذلك .

نيقولاس ايفانوفتش : لقد قلت ذلك فى معرض الرد على خالتك ، أما فى الحقيقة فليس لى أى حق فى هذه الغابة ، ان الأرض ملك لكل الناس ، أو بالأحرى لا يجب أن تكون مملوكة لأى انسان ، اننا لم نبذل فى هذه الأرض ، أى جهد أو عمل .

ستيبا : ولكنك ادخرت مالا وحافظت على هذه الغابة .

نيقولاس ايفانوفتش : ومن أين وكيف حصلت على هذه المدخرات ؟ من الذى ساعدنى على الادخار ؟ من المحقق أننى لست أنا الذى أحافظ على الغابة بنفسى ، وعلى أية حال هذا أمر لا يمكن اثباته لأى انسان لا يشعر بالخجل من نفسه عندما يضرب انسانا آخر .

ستيبا : ولكن لا يوجد أحد يضرب أحدا !

نيقولاس ايفانوفتش : عندما لا يشعر انسان بالخجل من نفسه وهو يتقاضى ثمرة كد الآخرين بدون أن يعمل شيئا ، فانك لا تستطيع أن تثبت لهذا الشخص أنه يجب أن يخجل من نفسه ، ان كل ما يهدف اليه علم الاقتصاد السياسى الذى درسته فى الجامعة ، هو تبرير هذا الوضع الزائف الذى نعيش فيه .

ستيبا : انى أرى الأمر على العكس ، فان غاية العلم هو القضاء على كل ظلم واجحاف .

نيقولاس ايفانوفتش : على أية حال فان ذلك كله لا يهمنى ، وانما المهم عندى هو أننى لو كنت فى مكان هذا الفلاح المحكوم عليه لتصرفت كما تصرف تماما ، ولشعرت باليأس والقنوط اذا أنا حبست ، ولما كنت أريد أن أعامل الناس بما أحب أن يعاملونى به ، فانا لا أستطيع أن أدينهم أو أن أقسو عليهم ، وانما أبذل كل مافى استطاعتى لانقاذهم .

بيتر سيمونوفتش : ولكن اذا سار الانسان على هذه الوتيرة ، فانه ينتهى حتما الى أن لا يتملك شيئا على الاطلاق !

الكسندرا ايفانوفا
ستيبا } (يتكلمان فى نفس الوقت) ومعنى هذا أن يكون من الأربح للانسان أن يسرق بدلا من أن يعمل .

أنت لا ترد أبدا على حجج الانسان ، اننى أقول ان الانسان الذى يدخر ، فان من حقه أن ينتفع بثمرات مدخراته .

نيقولاس ايفانوفتش : (مبتسما) ، لست أعرف على أى منكم أرد أولا ؟ (لبيتر سيمونوفتش) ، أجل يا صديقى ، انه من الواجب على الانسان ألا يتملك شيئا على الاطلاق .

الكسندرا ايفانوفا : ولكن اذا كان الانسان لا يملك شيئا ، ويجب عليه أن يعطى كل شيء ، فمعنى ذلك أن لا يكون باستطاعته أن تكون لديه ملابس بل ولا حتى كسرة من الخبز ، وفى هذه الحالة فان الحياة تصبح مستحيلة .

نيقولاس ايفانوفتش : ويجب أن تكون الحياة بالطريقة التى نحياها مستحيلة فعلا.

ستيبا : أو بعبارة أخرى اننا يجب أن نموت . اسمح لى يا أبى أن أقول ان هذه التعاليم التى تقول بها غير صالحة للحياة .

نيقولاس ايفانوفتش : لا ، لقد منح الله الناس حق الحياة ، وهذا ما يجعلنى أقول لكم ان الانسان يجب أن يعطى كل شيء للآخرين ، ليس فقط الأرض والغابة التى لا نستعملها ، والتى لا نكاد نكون قد رأيناها ، بل وأن نعطى فوق ذلك ملابسنا وخبزنا .

الكسندرا ايفانوفا : ماذا ؟! وأطفالنا أيضا ؟

نيقولاس ايفانوفتش : أجل وأطفالنا أيضا . وليس فقط خبزنا ، بل وأنفسنا ، وهنا تكمن كل تعاليم المسيح الحقة . فان على الانسان أن يكافح بكل قوته وعزمه لكى يعطى نفسه للآخرين .

ستيبا : لكن ذلك معناه أن يموت .

نيقولاس ايفانوفتش : أجل ، فلو أنك أعطيت حياتك لأصدقائك واخوانك ، فان ذلك يكون أمرا رائعا بالنسبة لك وللآخرين .

ولكن الحقيقة الواقعة ، أن الانسان لا يتألف من الروح فحسب ، بل انه يتألف من روح وجسد ، والجسد يعمل جاهدا لحمل الانسان على الحياة من أجله هو بينما تدفعه اشراقة الروح للعمل من أجل الله ، بالعمل من أجل الآخرين . والحياة فى كل منا ليست حيوانية فقط ، بل انها متوازنة بين الاثنين ، الروح والجسد . وكلما كانت حياتنا من أجل الله ، كلما كان ذلك أحسن وأكمل ولن يعجز الحيوان فى أنفسنا عن تدبير شئونه .

ستيبا : ولماذا تختار طريقا وسطا ومتوازنا بين الاثنين ؟ ، اذا كان من الحق علينا أن نفعل ما تقول ، فلماذا لا نوزع كل شىء على الناس ونموت ؟

نيقولاس ايفانوفتش : ان هذا يكون رائعا حقا ، حاول أن تفعله ، وسترى أنه يهيىء لك وللآخرين خيرا عميما .

الكسندرا ايفانوفا : لست أرى الأمر بهذه البساطة التى تصوره بها ، ولا بهذا الوضوح ، انه أمر معقد جدا .

نيقولاس ايفانوفتش : فى هذه الحالة فلا حيلة لى ، ان هذه القضية لا يمكن اثباتها بالحجج والبراهين ، انها شىء يحس بالشعور والوجدان ، ومع ذلك فحسبنا كلاما فى هذا الموضوع .

ســـتيبا : أجل ، كفى حديثا ، فاننى لا أفهم منه شيئا .

(يخـــرج) .

نيقولاس ايفانوفتش : (مخاطبا القس) ، حسنا ، ماذا كان أثر الكتاب فى نفسك ؟

القس : (مرتبكا) ، لست أعرف كيف أصور لك الموضـــوع ، ان القسم التاريخى من الكتاب ، قد بذل فيه مجهود كبير من غير شـــك ، ولكنه غير مقنع تماما أو فلنقل لا يمكن أن يعتد به كل الاعتـــداد ، لأن العناصر والحقائق التى يقوم عليها غير كافية ، فى الواقع ، فلا ألوهية المسيح ، ولا نفس الألوهية ، مما يمكن اثباته تاريخيا ، ولكن هناك دليل غير قابل للجدل أو للمنازعة ....

(خـــلال هذا الحـــديث تخـــرج الســـيدات ثم يلحق بهن بيترسيمونوفتش)

نيقولاس ايفانوفتش : تعنى الكنيسة ؟

القس : أجل بالطبع . والدليل المستمد .... ولنقل من شهادة الرجال الثقات ، من أمثال القديسين والشهداء .

نيقولاس ايفانوفتش : من غير شك ، كم يكون أمرا رائعـــا ، لو وجـــد أشخاص معصومون ومنزهون عن الخطأ يمكن الاعتمـــاد عليهم . ان ذلك أمر تتمناه ونرغب فيه جدا ولكن مجرد رغبتنا فى وجودهم لا تقوم دليلا على وجودهم بالفعل .

القس : هذا الذى تقوله هو فى عقيدتى الدليل على وجودهم ، فان الله الذى بعث الينا بالحقيقة ، ماكان يسمح أن تمسخ هذه الحقيقة ، وأن يساء تفسير قوانينه وشرائعه ، فلا بد أن يكون قد ترك فى هذه الدنيـــا حراسا على حقيقته الأزلية حتى لا تمتد اليها يد التحريف أو العبث .

نيقولاس ايفانوفتش : حسن جدا ، ولكن ألا تلاحظ أننا كنا بصدد اثبات الحقيقة نفسها فانتقلنا الآن الى اثبات جدارة الحفظة عليها .

القس : فى الواقع ، هنا ونحتاج للايمان .

نيقولاس ايفانوفتش : الايمان ! أجل ، نحن فى حاجة للايمان دائمـــا ، وليس باستطاعتنا أن نتصرف بغير الايمان . ولكن ليس المقصود بالايمان ، هو أن نؤمن بما يقوله لنا الآخرون ، ولكن هو أن نؤمن بما ينبثق داخـل نفوسنا عن طريق تفكيرنا الخاص ، وبعقلنا الخـاص ، الايمـان بالله ، وبالحياة الحقة الخالدة .

القس : ولكن العقل قد يخدعنا ، فلكل واحد منـا عقل يختلف عن الآخر .

نيقولاس ايفانوفتش : (بحرارة) ، هذا الذى تقول هو فى نظرى أشد ألوان الكفر والتجديف على الله . لقد منحنا الله جميعا أداة مقدسة تتوصل بها لمعرفة الحقيقة وهى العقل ، انه الشىء الوحيد الذى يمكن أن يوحد بينا جميعا، ونحن نكفر بهذه الأداة المقدسة ، ولا نثق بهذا العقل الذى هو عطية الله للانسان .

القس : كيف نثق فى العقل ؟ وهناك هذه المتناقضات والمفارقات ؟

نيقولاس ايفانوفتش : أين هى هذه المتناقضات ؟ أهى أن اثنين واثنين يسـاويان أربعة ، أم أنه يجب على الانسان أن يعامل الناس بما يحب أن يعاملوه به ، أم هى فى القول بأن لكل شىء فى هذه الحياة سببا ؟

أهذه متناقضات ، أم هى حقائق نعترف بها كلنا لأنها تتفق مع عقولنـا جميعا ، أما أن يكون الله قد ظهر على جبـل سيناء لموسى ، أو أن بوذا طار الى السماء على أشعة الشمس ، أو أن محمدا صعد به الى السماء[1]، أو أن المسيح قام من قبره فى اليوم الثالث وصعد الى السماء كذلك ، هذه هى الأمور التى يختلف فيها البشر أشد الخلاف .

---

(١) يلمح تولستوى الى مايروى عن الرسول من ركوبه البراق وعروجه الى السماء . (انظر هامش ص ٣٧) .

القس : ليس هناك أى خلاف ، ان الذين يتمسكون منا بالحق يتحدون جميعا فى ايمان واحد ، وهو الايمان بالله الحق ، المسيح .

نيقولاس ايفانوفتش : لا يا سيدى ، حتى فى هذه الناحية لا يمكن أن يكونوا متحدين ، بل لقد انقسمتم الى فرق وشيع ، هل تستطيع أن تقول لى ، على أى أساس أعتقد فيك أنت بأكثر مما أعتقد فى راهب بوذى ؟ ألمجرد الصدفة التى جعلتنى أولد مسيحيا ؟

(يسمع أصوات من الخارج تنبعث من لاعبى التنس الذين يتنازعون فيما بينهم)

(أوت ـ لا . . . ليست أوت) .

صوت فانيا : (من الخارج) ، لقد رأيتها .

(خلال المناقشة يدخل بعض الرجال الخدم ويعدون المائدة من جديد استعدادا لتقديم الشاى والقهوة) .

نيقولاس ايفانوفتش : انك تقول ان الكنيسة توحد بين الناس ، وأنا أقول لك الأمر على عكس ما تقول . ان أسوأ ما عرفت البشرية من خلافات ومنازعات قد وقعت بسبب الكنيسة .(كم مرة جمعتكم كما تجمع الدجاجة أفراخها) .

القس : كان هذا الى ما قبل المسيح ، ولكن يسوع المسيح قد جمعهم نهائيا .

نيقولاس ايفانوفتش : أنا معك ، لقد جمعنا المسيح ، ولكن نحن الذين نوجد الفرقة بين صفوفنا ، ونتحول الى شيع ، لقد فهمنا المسيح فهما خاطئا .
أو لم يحطم المسيح الكنائس كلها ؟!

القس : أو لم يقل (اذهب وقل للكنيسة) ؟

نيقولاس ايفانوفتش : ان المسألة ليست مسألة ألفاظ ، ومع كل فان هذه الكلمات التى قالها المسيح لا تنطبق على ما نسميه نحن بالكنيسة ، والمهم دائما

هو جوهر التعاليم لا قشورها ، وجوهر التعاليم المسيحية عالمى انسانى ، فهى تتسع لكل الأديان ، ولا تسمح بأن تكون وقفا على طائفة معينة أو فريق من الناس . بل لا تسمح بما من شأنه أن يفرق بين الناس ، كقيامة المسيح من الموت ، أوألوهيته أو السر المقدس .

القس : فى الحق ، ان هذا هو تفسيرك أنت لتعاليم المسيح اذا جاز لى أن أقول ذلك ، ولكن تعاليم المسيح كلها مؤسسة على ألوهيته وقيامه من الموت .

نيقولاس ايفانوفتش : وهذا هو أقبح ما يتصل بالكنائس من تعـاليم ، ان رجال الدين يفرقون بين الناس عندما يدعون أنهم وحـــدهم الذين يعرفون الحقيقة الثابتة الأزلية التى لا مرية فيها .

اذا تكلم رجال الدين قالوا ، انه يسرنا ويسر روح القدس ولقد بدأ ذلك فى مجمع الرسل ، وتطور الأمر حتى أصبح رجال الدين يتمســكون بفكرة أنهم وحدهم من دون العالمين من يعرف الحقيقة الكاملة .

تأمل معى ، اننى عندما أقول ان الله موجود لأنه السبب الأول للعـالم ، فان باستطاعة كل انسان أن يتفق معى على هذه الحقيقة وهذا الاعتراف بوجود الله يوحد بيننا . ولكن عندما أقول ان الله هو « براهمـا » أو « ياهوه » أو « الأقانيم الثلاثة » ، فان هذه الآلهة تفرق بيننا . ان بنى البشر يرغبون فى الاتحـاد ، ومن أجل تحقيق هذه الغاية اخترعوا كل الوسائل التى تؤدى الى هذا الاتحاد ، ولكنهم أهملوا الوسيلة الوحيدة التى لا يمكن أن تخطىء فى تحقيق هـذا الاتحـاد ، وهى البحث عن الحقيقة .

ان شأنهم كشأن أقوام يسكنون فى مبنى كبير حيث يضىء نور النهار من فوقهم وسط الدار ، ومع ذلك فهم يتجمعون فى حلقات حول المصابيح فى أرجاء المكان المختلفـــة ، بدلا من أن يتجهوا صوب النور الدافق فى الوسط حيث يتم اتحادهم بصورة طبيعية .

القس : ولكن كيف يمكن أن يقاد الناس بغير حقيقة واحدة مجمع عليهـا ؟

نيقولاس ايفانوفتش : هذا هو الأمر المروع ، وهو رغبتكم الشـديدة فى قيـادة الناس .

يا سيدى ، يجب على كل واحد منا أن يعمل على انقاذ روحه هو . أن يؤدى رسالة الله فى نفسه أولا وقبل كل شيء .ولكنا بدلا من ذلك نروح نشغل أنفسنا بهداية الآخرين ، وانقاذهم . وما الذى نعلمه لهم ؟

اننا نعلمهم الآن فى نهاية القرن التاسع عشر أن الله خلق الدنيا فى ستة أيام واستراح فى اليوم السابع ، ثم أحـدث الطوفان ووضع كل الحيوانات والبهائم فى سفينة نوح الى آخر هذه الأمور المفزعة والسخيفة معا ممـا حشى به العهد القديم ، ثم نقول لهم ان المسيح فرض على كل انسان أن يعمد بالماء ، والا فلا يكون مسيحيا ، ونحملهم على الاعتقاد بهذا الحشد من الطقوس السخيفة التافهة التى لا تتم عملية الغفران والتكفير اللازمين للخلاص الا بها ، ثم هذا الاعتقاد بأن المسيح قام من الأموات وصعد الى السماء التى لا وجود حقيقى لها ، وهناك جلس الى يمين الأب ...

لقد ألفنا هذه العبارات والأقوال ، ولكنهـا فى الحقيقة شيء فظيع جدا أمامنا طفل صغير غض الاهاب مستعد لتقبـل كل ما هو خير ، وحق ، وجميل . يسألنا ما هو العالم ، وما هى نواميسه وقوانينه ، فبدلا من أن نشرح له تعاليم الحب والحقيقة التى أعطيت لنا ، نروح نحشر فى رأسه كل السخافات والأمور المفزعة والدنيئة ، ناسبين ذلك كله الى الله ، أليس هذا فظيعا ؟ انها لجريمة منكرة كأشنع ما يمكن للانسان أن يرتكب من جرائم ونحن — أو بالأحرى أنت وكنيستك تفعلون ذلك !

عفوا ، سامحنى .

القس : طبعا ، اذا نظر الانسان الى تعاليم المسيح من ناحية عقليـة بحتة فان الأمر يبدو كما تقول .

نيقولاس ايفانوفتش : من أى زاوية نظرت للموضـــوع ، فان الأمر لا يمكن أن يكون الا كذلك

(سـكون) . (تدخل الكسندرا ايفانوفا ــ ينحنى القس مستأذنا) .

الكسندرا ايفانوفا : مع السلامة يا أبى . حذار من الاستماع اليه ، والا انحرف بك عن جادة الطريق .

القس : (مخاطبا نيقولاس) ادرس الكتاب المقدس ، فى الواقع ، ان الأمر هام جدا ، بحيث لا يمكن أن يهمل (يخرج)

الكسندرا ايفانوفا : حقا يا نيقولاس ، انك لا ترحمـــه ، ولا تنس أنه بالرغم من كونه قسيسا فهو لا يزال صغيرا ، ولا يمكن أن تكون لديه عقيـــدة راسخة أو نظريات ثابتة .

نيقولاس ايفانوفتش : أتريدين أن يعطى الوقت الكافى لكى يتحجر فى الباطل !؟ لا ، ولماذا يجب على أن أفعل ذلك ؟ على أية حال فهـــو رجـــل طيب ومخلص .

الكسندرا ايفانوفا : ولكن ، أو لم تفكر فيما يمكن أن يحل به اذا هو آمن بك وانسلخ من تعاليم الكنيسة ؟

نيقولاس ايفانوفتش : انه ليس مدعوا للايمان بى ، وهو ليس فى حاجة الى ذلك ، ولكنه اذا رأى الحقيقة بنفسه فان ذلك يكون خيرا له ولكل الناس .

الكسندرا ايفانوفا : لو أن الأمر خير كما تقول ، لكان كل انسان مستعدا أن يؤمن بك ولكنك ترى بنفسك أن أحدا لا يؤمن بما تقول ، وزوجتك آخـــر الناس طرا ، والحق أنها لا تستطيع أن تؤمن بك .

نيقولاس ايفانوفتش : من قال لك ذلك ؟

الكسندرا ايفانوفا : حسن ، حاول وجرب أن تفسر لها فلسفتك ، انها لن تستطيع

أن تفهم ، وليست هى فقط بل ولا أنا ، ولا أى انسان فى هذه الدنيا يمكن أن يفهم كيف يعتنى بالآخرين تاركا أولاده وأسرته ، هيا اذهب وحاول أن تفسر ذلك لمارى .

نيقولاس ايفانوفتش : وهذا هو ما سأفعله ، وسوف تفهمنى مارى حتما . اذا لم يتدخل الآخرون فى الموضوع ، عفوا ، الكسندرا — اذا أمنا هذا التدخل ، فسوف تفهمنى مارى بلا شك ، بل وستسير معى فى هذا الطريق .

الكسندرا ايفانوفا : تسير معك لتجعل من أولادك شحاذين ومتسولين من أجل الفلاحين أمثال « يافيم » العربيد !؟ يستحيل أن أتصور ذلك . وعلى أية حال فانى أرجوك أن تسامحنى اذا كنت أغضبتك ، فأنا كما تعرف لا أستطيع أن أكتم ما فى نفسى .

نيقولاس ايفانوفتش : أنا لست غاضبا ، بل على العكس اننى سعيد ، لأنك تكلمت وأتحت لى بتحديك الفرصة ، لكى أشرح لمارى كل نظرتى الى الحياة ، وهو ما كنت أفكر فى أن أقوم به أثناء عودتى اليوم الى البيت ، سوف أتحدث مع مارى الآن ، فورا . وسترين أنها ستوافقنى لأنها عاقلة وطيبة .

الكسندرا ايفانوفا : أما أنها ستوافقك ، فأرجو أن تسمح لى بالاحتفاظ بشكوكى فى هذا الموضوع .

نيقولاس ايفانوفتش : لا يوجد لدى أدنى شك فى موافقتها ، ان الأمر ليس من اختراعى كما تعرفين ، انها دعوة المسيح التى دعانا لها جميعا .

الكسندرا ايفانوفا : أو بمعنى أدق ، ما تتصور أنت أنه دعوة المسيح ، أما أنا فأظن أن المسيح قال شيئا آخر يخالف ما تقول بالمرة .

نيقولاس ايفانوفتش : لا يمكن أن تكون دعوة المسيح شيئا آخر .

(صيحات من الخارج من لاعبى التنس) .
تسمع الأصوات الآتية من الخارج .

لـــوبا : (أوت)

فانيــــا : كلا ليست (أوت) ، لقد رأيناها

لــــيزا : انى واثقة ، لقد وقعت هنا بالضبط

لـــوبا : أوت ! أوت ! أوت

فانيـــا : ليس هذا صحيحا .

لـــوبا : لا تنس أنه من الفظاظة أن تقول « ليس هذا صحيحا »

فانيــــا : ومن الفظاظة كذلك أن يقول الانسان شيئا غير صحيح .

نيقولاس ايفانوفتش : (مستأنفا حديثه) ، حاولى أن تسمعى الى قليلا دون مناقشة . أليس من المحقق أننا قد نموت فى أى لحظة ، ويكون معنى ذلك واحدا من اثنين : اما أننا سنفنى ونتلاشى ونعود الى العدم واما أننا سنرجع الى الله خالقنا الذى يتوقع منا أن نعيش وفق مشيئته ؟

الكسندرا ايفانوفا : حسن ؟

نيقولاس ايفانوفتش : حسنا ، فما الذى أستطيع أن أفعله فى هذه الدنيا ، الا أن أنفذ مشيئة القاضى الأعظم الكامن فى روحى ، ألا وهو ضــميرى . وما ضميرى سوى الله الذى يطلب منى أن أعتبر كل انسان فى هذه الحياة مساويا لى ، لأنه أخى ، ويجب أن أحبه وأن أحترم كل الناس .

الكسندرا ايفانوفا : وأولادك أيضا ؟

نيقولاس ايفانوفتش : وأولادى أيضا بطبيعة الحال . وان اطاعة ضميرى تلزمنى أن أدرك فى الدرجة الأولى أن حياتى ليست ملكا لى ، وأن حياتك ليست ملكا لك ، وانما هى ملك لله الذى بعث بنا الى هذه الدنيا لكى ننفذ مشيئته ، وليست مشيئته سوى ....

الكسندرا ايفانوفا : (مقاطعة) ، وهل تتصور أن باستطاعتك أن تقنع زوجتك بهذه الآراء ؟ .

نيقولاس ايفانوفتش : طبعا .

الكسندرا ايفانوفا : وانها سوف تعدل عن تعليم أولادها كما ينبغى ، وستكون مستعدة للتخلى عنهم ؟ . مستحيل .

نيقولاس ايفانوفتش : ليست مارى وحدها هى التى ستدرك ضرورة ذلك ، بل أنت نفسك ستدركين أنه لا يوجد أمامنا ثمة سبيل للخلاص غير ذلك .

الكسندرا ايفانوفا : مستحيل ... مستحيل .

(تدخل مارى ايفانوفا)

نيقولاس ايفانوفتش : (بعطف وحنان) ، حسن يامارى ، أرجو ألا أكون قد أيقظتك هذا الصباح ، أليس كذلك ؟ .

مارى ايفانوفا : كلا ، فانى لم أكن نائمة . وأنت ، عسى أن تكون قد وفقت فى يومك ؟

نيقولاس ايفانوفتش : أجل .

مارى ايفانوفا : لماذا قهوتك باردة جدا ، وكيف تشربها باردة هكذا ؟ يجب أن نعمل قهوة غيرها من أجل ضيوفنا على كل حال . هل تعرف أن شيرميشانوفا آتية مع ابنها وابنتها ؟

نيقولاس ايفانوفتش : اذا كان مجيئهم يسرك يامارى ، فانه يسرنى كذلك .

مارى ايفانوفا : أننى أحبها وأحب أولادها ، ولكنهم اختاروا وقتا غير مناسب للقيام بهذه الزيارة .

الكسندرا ايفانوفا : (ناهضة) ، هه ، باستطاعتكما أن تتكلما سويا فى موضوعكما بينما أخرج لمراقبة لعبة التنس .

(تخرج — لحظة سكون — تشرع مارى ونيقولاس فى الكلام فى آن واحد) .

مارى ايفانوفا : الوقت غير مناسب ، لأننا يجب أن نتحدث سويا .

نيقولاس ايفانوفتش : لقد كنت أقول الآن لألينا ...

مارى ايفانوفا : ماذا ؟

نيقولاس ايفانوفتش : لا . تكلمى أنت أولا .

مارى ايفانوفا : وهو كذلك . أننى أريد أن أتكلم معك بخصوص ابننا ستيبا . يجب أن نبت فى مسألته فى نهاية الأمر . ان الولد المسكين يشعر بالكآبة ولا يعرف ماذا يكون عليه مستقبله ، لقد التجأ الى ، ولكن كيف استطيع أنا أن أقرر مستقبله ؟

نيقولاس ايفانوفتش : ولماذا تزعجى نفسك بتقرير مستقبله ؟ لماذا لا يفعل ذلك بنفسه ؟

مارى ايفانوفا : ولكنك تعرف أنه يريد الالتحاق بسلاح الفرسان كمتطوع ، ولا يمكن أن تتاح له هذه الفرصة الا اذا وقعت معه على الأوراق ، وهيأت له المعونة المالية التى تسمح له بالاحتفاظ بمكانته . وأنت ترفض أن تعطيه شيئا .

(يغلبها التأثر ويتهدج صوتها فى هذه العبارة الأخيرة) .

نيقولاس ايفانوفتش : مارى ، أرجوك بحق السماء ألا تهتاجى ، وأنصتى الى اننى لا أعطى شيئا ، ولست أمنع عن أحد شيئا . ولكن المسألة فى نظرى أن التحاق انسان بالخدمة العسكرية على سبيل التطوع وبمحض حريته واختياره مسألة فى منتهى الغباوة والتبلد فى الأحساس : أو اذا شئت فانى أعتبره تصرفا بربريا واذا كان الانسان لا يستطيع أن يدرك مدى الشر فى تصرف من تصرفاته أو ما هو جدير من هذه التصرفات بالازدراء لمجرد أنه يقدم عليها من أجل أغراض شخصية ....

مارى ايفانوفا : ولكن ألا ترى أن كل شىء قد أصبح فى نظرك هذه الأيام تبلدا ، أو بربريا ؟ ولكن فى نهاية الأمر يجب أن نعيش ، أليس كذلك ؟ ، أو لم تعش أنت من قبل ؟ .

نيقولاس ايفانوفتش : (وقد بدأ يحتد) . لقد عشت حياتى عندما لم أكن أفهم ،

وعندما لم يكن هناك من ينصحنى ويدلنى على الطريق السوى . على كل حال فان أمر ستيبا لايتعلق بى وانما يتعلق به .

مارى ايفانوفا : كيف لايتعلق بك ؟ ألست ترفض أن تعطيه الاعانة المالية المطلوبة ؟

نيقولاس ايفانوفتش : اننى لا أستطيع أن أدفع له ما ليس ملكى .

مارى ايفانوفا : ليس ملكك ؟ ماذا تعنى . ؟

نيقولاس ايفانوفتش : أعنى أن عمل الآخرين وكدهم ليس ملكى . فلكى أعطيه نقودا يجب أن آخذها أولا من الفلاحين ، وليس من حقى أن أفعل ذلك ، بل ليس فى استطاعتى . وما بقيت أنا المسئول عن ادارة هذه الضيعة ، فلن أديرها الا بالطريقة التى يمليها على ضميرى ، وان ضميرى ليأبى على أن أعطى ثمرة كدح الفلاحين المرهقين بالعمل لابنى لكى ينفقه على حياة اللهو والفجور التى يحياها ضباط (السوارى) سلاح الفرسان .

لا ، لا أستطيع ، خذى منى أملاكى ، وعندئذ لا أكون مسئولا عنها .

مارى ايفانوفا :وأنت تعرف أننى لا أريد أخذ هذه الأملاك ، فضلا عن أننى غير قادرة على ادارتها ، ان على أن أربى الأولاد فوق حملى لهم وارضاعهم جميعا ان هذا فى منتهى القسوة على .

نيقولاس ايفانوفتش : مارى ياعزيزتى ، ليس هذا هو الأمر المهم . لقد كنت أهم بالتحدث معك بكل صراحة ، فى ذات الوقت الذى رغبت فيه أنت أن تتحدثى معى . ان حياتنا لا يمكن أن تمضى على هذه الوتيرة . اننا نعيش معا وتحت سقف واحد ، ولكن دون أن يفهم أحدنا الآخر ، بل اننا لنبدو فى بعض الأحيان ، كما لو كنا نتعمد اساءة فهم بعضنا .

مارى ايفانوفا : أنا أريد أن أفهم ، ولكننى غير قادرة على فهمك ، اننى لا أعرف ماذا أصابك أو حل بك .

نيقولاس ايفانوفتش : حسن ، اذن حاولى أن تفهمى ! قد لا يكون الكلام الآن فى الوقت المناسب ، ولكن الله وحـــده هو الذى يعلم متى يكون باستطاعتنا أن نجد وقتا مناسبا .

لا تكدى نفسك فى محاولة فهمى أنا ، بل افهمى نفسك ، افهمى معنى حياتك أنت ! نحن لا نستطيع أن نمضى هكذا فى الحيـاة دون أن نعرف فى أى طريق نحن سائرون ، وما هو هدفنـا ، ما هو الغرض الذى نعيش من أجله فى هذه الحياة .

ماری ایفـانوفا : ولكننا عشنا كذلك حتى الآن ، وعشنا سعداء

(تلاحظ على وجهه مظاهر الضيق) .

حسن ، حسن ، ها أنا مصغية لك .

نيقولاس ايفانوفتش : نعم ، أنا أيضا عشت هكذا ، أو كمـا تقولين بدون أن أفكر لماذا أنا عائش ، ولكن جاءت الساعة التى وجدتنى أصـاب فيها بفزع ، عندما اكتشفت أننا نعيش على كد الآخرين ، وتعبهم ، واننا نضطر هؤلاء الآخرين للعمل من أجلنـا ، من أجل ملذاتنـا وشهواتنا ، ثم نجىء بأولادنا ، ليحيوا مثل حياتنا ، ثم لا تلبث أن تدركنـا الشيخوخة ومن ورائهـا الموت . فسألت نفسى : لماذا عشت ؟ ألكى أربى طفيليات أكثر وأكثر من طرازى وعلى شاكلتى ؟ بل وأولا وقبل كل شىء ، هل نحن نستمتع حقا بهذه الحياة التى نحياها ؟ كلا ... انها مجرد حياة محتمـلة كما تعرفين ، وان كنت أنت على غرار ابننا فانيا ، تفيضين بالحيـاة والحيوية .

ماری ایفـانوفا : ولكن الناس جميعا يحيون على هذه الوتيرة .

نيقولاس ايفانوفتش : والناس كلهم تعساء .

ماری ایفـانوفا : أبدا ، ليس الأمر كذلك .

نيقولاس ايفانوفتش : على أية حال لقد وجدت نفسى تعسا الى درجة فظيعة ، ولقد

جعلنا أولادنا تعساء كذلك . وهذا ما جعلنى طالما أسائل نفسى : هل من المعقول أن يكون الله قد خلقنا من أجل هذه الغاية ؟ وما أن فكرت فى الموضوع حتى اقتنعت أنه من المحال أن يكون الله قد خلقنا كذلك ، وعلى ذلك فقد سألت نفسى السؤال التالى : واذن فمن أجل أى شىء خلقنا الله ؟

(يدخل رجل خادم) .

ماری ایفانوفا : (غير مصغية لزوجها تلتفت الى الخادم) احضر بعض اللبن المغلى .

نيقولاس ايفانوفتش : ولقد وجدت فى الأناجيل الرد على سؤالى ، انه لم يخلقنا لكى نعيش من أجل أنفسنا فقط ، ولقد انكشف لى هذا الشىء بوضوح بينما كنت أنعم النظر فى قصة العمال الذين عملوا فى كرمة العنب . انك تعرفين القصة فى الانجيل ؟

ماری ایفانوفا : أجل قصة الفعلة [1]

(١) (المترجم) جاء فى الانجيل فى الفصل العشرين :

« يشبه ملكوت السماوات رجلا رب بيت خرج بالغداة يستأجر عملة لكرمه . فشارط العملة ، على دينار فى اليوم ، وأرسلهم الى كرمه . ثم خرج فى الساعة الثالثة فرأى آخرين فى السوق بطالين . فقال لهم امضوا أنتم الى كرمى وأنا أعطيكم ما يحق لكم . فحضروا وخرج أيضا نحو الساعة السادسة ، ونحو التاسعة فصنع كذلك . وخرج أيضا نحو الحادية عشرة ، فوجد آخرين واقفين، فقال لهم ، ما بالكم واقفين هذا النهار كله بطالين ، فقالوا انه لم يستأجرنا أحد، فقال امضوا أنتم أيضا الى كرمى . فلما كان المساء قال رب الكرمة لوكيله ، أدع العملة وأعطهم الأجر مبتدءا من الآخرين الى الأولين — فجاء أصحاب الساعة الحادية عشرة فأخذوا كل واحد دينار . فلما جاء الأولون ظنوا أنهم يأخذون اكثر ، فأخذوا هم أيضا كل واحد دينارا . وفيما هم يأخذون تذمروا على رب البيت ، قائلين أن هؤلاء الآخرين عملوا ساعة واحدة فجعلتهم مساوين لنا ، ونحن حملنا ثقل النهار وحره . فأجاب وقال لواحد منهم يا صاح ما ظلمتك ألم أكن على دينار شارطتك ، خذ مالك وامض ، فانى أريد أن أعطى هذا الآخر مثلك . أليس لى أن أفعل بمالى ما أريد ، أم عينك شريرة لأنى أنا صالح . فعلى هذا المثال يكون الآخرون أولين ، والأولون آخرين لأن المدعوين كثيرون والمختارون قليلون » .

نيقولاس ايفانوفتش : هذه القصة المثالية كشفت لى أكثر من أى شيء آخر مقدار ما كنت غارقا فيه من الخطأ . فقد تصورت مثل هؤلاء الفعلة أن الكرمة ملكى ، وأن حياتى ملكى أنا ، ومن هنا تجلى كل شيء حـولى مخيفـا ومزعجا . ولكن ماأن أدركت أن حياتى فى الحقيقة لا تخصنى ، وليست ملكى أتصرف فيها كما أشاء ، وانما أرسلت الىّ هـذه الدنيا لأنفـذ مشيئة الله ....

مارى ايفـانوفا : لكن أى جديد هذا الذى تقوله ؟ اننا جميعا نعرف ذلك .

نيقولاس ايفانوفتش : حسن جـدا . اذا كنا نعرف ذلك ، فليس باستطاعتنـا أن نواصل حياتنا بهذا الأسلوب الذى نتبعه الآن ، أبعـد ما نكون عن تنفيذ مشيئة الله . بل على العكس نعيش فى مخالفة مستمرة لهذه المشيئة الالهية وتحديها .

مارى ايفـانوفا : ولكن أى مخالفة لمشيئة الله تلك التى نرتكبها ونحن لا نؤذى أحـدا .

نيقولاس ايفانوفتش : حقا ؟ هل نحن لا نؤذى أحدا ؟

ان نظرتنا الى الحياة من هذه الزاوية لا تختلف بحال عن نظرة الفعلة ، لماذا نحن ....

مارى ايفـانوفا : (مقاطعة) ، أجل أنا أعرف القصة ، عندما أعطى جميـع الفعلة أجورهم بالتساوى .

نيقولاس ايفانوفتش : (يتريث قليلا) ، لا ... ليس هذا موضع الشاهد (١) .

---

(١) لست أعرف ، وقد نفى تولستوى أن يكون اعطاء الفعـلة أجورهم بالتساوى هو موضع استشهاده بالقصة ، فلماذا لم يوضح دلالة القصـة فى تقديره . ان ظاهر القصة قد يوحى بضرورة عدم الاعتراض على مشيئة الله وهو مقسم الأرزاق بما يخالف العدل الظاهر ، فكان يتعين على تولستوى أن يزيد الأمر وضوحا ، وأنا شخصيا لم أعرف على كثرة ما فكرت ، كيف تدعـم هذه القصة وجهة نظر تولستوى ــ المترجم .

المهم الآن أن تقدرى شيئا واحدا يا مارى ، وهو أنه ليس لنا الا حياة واحدة فقط وباستطاعتنا اما أن نحيا هذه الحياة بطريقة خيرة ، واما أن نضيعها هباءً .

مارى ايفانوفا : ليس بقدرتى أن أفكر وأن أمضى معك فى هذه المناقشة ، اننى لا أستطيع النوم بالليل . ان علىّ أن أرضع طفلى ، وأن أقوم بتدبير كل أعمال المنزل ، وبدلا من أن تبذل جهدك فى مساعدتى لتحمل هذا العبء فانك تقول لى أشياء لا أستطيع أن أفهمها .

نيقولاس ايفانوفتش : مارى !

مارى ايفانوفا : والآن ، هؤلاء الزائرون !

نيقولاس ايفانوفتش : لا .... دعينا نصل سويا الى تفاهم . (يقبلها) ، هل سنتفاهم ؟

مارى ايفانوفا : أجل ، كل ما أرجوه هو أن تعود الى سابق العهد بك فى الماضى .

نيقولاس ايفانوفتش : لا أستطيع ، ولكن انصتى الىّ .

(يسمع صوت أجراس عربة تقترب) .

مارى ايفانوفا : هذا غير ممكن الآن ، لقد وصلوا ، يجب أن أذهب لمقابلتهم .

(تخرج من ركن المنزل ويخرج وراءها ستيبا ولوبا) .

فانيا : لن تترك اللعب ، سنتم الدور فى وقت آخر ، (معاكسا) حسنا يا لوبا . ماذا بك الآن .

لوبا : (فى عزم) أرجوك ، لا محل الآن لهذا السخف .

(الكسندرا ايفانوفا تظهر هى وزوجها وليزا على الشرفة ، نيقولاس ايفانوفتش يروح ويجىء مستغرقا فى تفكيره) .

الكسندرا ايفانوفا : حسنا هل أقنعتها ؟

نيقولاس ايفانوفتش : ألينا ، ان ما يجرى بينى وبين زوجتى هام وخطير ، ولا محل

للمزاح فى هذا الأمر. لست أنا الذى سيقنع زوجتى ، وانما الحياة هى التى ستقنعها ، سوف يقنعها الحق الأزلى ، سوف يقنعها الله ، ولا مفر لها من الاقتناع ان لم يكن اليوم فغدا ، والا فبعد غد ، ولكن لا مناص لها من الاقتناع . وانه لمؤسف حقا أن الفرصة الكاملة لم تتح الآن لأحد لكى يكمل اقناعه . من الذى جاء الآن ؟

بيتر سيمونوفتش : انهم آل الشيرميشانوف . كاتيش شيرميشانوف التى لم تتح لى مقابلتها منذ ثمانية عشر عاما . وفى آخر مرة التقينا سويا غنينا سويا

(يغنى)

الكسندرا ايفانوفا : من فضلك لا تقاطعنا ، ولا يخطـر ببالك أنه من الممكن أن أتشاجر مع نيقولاس . اننى أقرر الحقيقة (لنيقولاس) اننى لا أمزح على الاطلاق ، ولكن الأمر الذى استوقفنى وبدا لى غريبا ، هو أنك اعتزمت أن تقنع مارى بوجهة نظرك فى الوقت الذى كانت قد قررت هى فيه ، أن تحسم الأمور معك بصفة نهائية .

نيقولاس ايفانوفتش : حسن جدا ، حسن جـدا . انهم قادمون الآن . أرجوك أن تقولى لمارى اننى سأكون فى حجرتى . (يخرج)

ســــــتار

الفصل الثاني

المنظر الأول

(فى ذات البيت الريفى بعد اسبوع)
يمثل المنظر حجرة طعام كبيرة . المائدة معدة لتناول الشاى والقوة وعليها سيماور . بيانو كبير ، حامل لوضع النوتات الموسيقية الى جوار الحائط .
مارى ايفانوفا والبرنسيس وبيتر سيمونوفتش يجلسون الى المائدة .

بيتر سيمونوفتش : آه ، برنسيس . لقد مضى زمن طويل مذ كنت تغنين دور روسينى وكنت أنا .... على اننى أصبحت الآن غير صالح حتى لأداء دور دون باسيلو .

البرنسيس : ان الزمن قد تغير ، وأولادنا هم الذين يقومون الآن بالغناء .

بيتر سيمونوفتش : أجل ، لقد أصبح زمننا هذا هو زمن الحقائق المادية والأمر الواقع ولكن ابنتك تعزف عزفا جيدا وبطريقة رائعة . (ملتفتا حوله) ولكن أين الأولاد الصغار ؟ لا أظن أنهم ما يزالون نائمين ؟

مارى ايفانوفا : أجل ، لقد قاموا فى الليلة الماضية بنزهة على ظهور الجياد فى ضوء القمر ، وعادوا فى ساعة متأخرة . لقد كنت وقتئذ أرضع طفلى فسمعت أصواتهم .

بيتر سيمونوفتش : ومتى يعود نصفى الحلو ، هل أرسلت سائق العربة لاحضارها ؟

مارى ايفانوفا : أجل ، لقد ذهبوا منذ وقت مبكر لاحضارها ، وكنت أتوقع أن تكون قد وصلت الآن .

البرنسيس : هل ذهبت الكسندرا ايفانوفا لاحضار الأب جيراشيم بالفعل؟

ماري ايفانوفا : أجل ، لقد جاءتهـا الفكـــرة بالأمس ، فأسرعت على التو لتنفيذها .

البرنسيس : ياللنشاط ، كم أنا معجبة بها .

بيتر سيمونوفتش : آه ، أما بالنسبة للنشاط ، فان ذلك لا ينقصها ، (آخذا سيجارة) ، على أنني سأذهب الآن لأدخن وأقوم بنزهة في الحديقة مع الكلاب ريثما يستيقظ أولادنا الصغار .

(يخرج) .

البرنسيس : لست أعرف ياعزيزتي ماري ما اذا كنت على خطأ أو صواب، ولكني أتصور أنك تضعين قلبك في الموضوع أكثر مما ينبغي . انني أدرك أن زوجك في حالة توتر فكري ، ولكن أي خطر في ذلك ؟ افرضي أنه يعطي بعض ماله للفقراء ، أو لا ترين أننا نفكر في أنفسنا أكثر مما ينبغي ؟

ماري ايفانوفا : أجل ، لو أن ذلك كان هو كل مافي الأمر ، لما كان فيه أي خطر ، ولكنك لا تعرفين زوجي ، ولا تعرفين ما الذي يهدف اليه ، ان الأمر عنده ليس بهذه البساطة التي تتصورينها ، وهو مجرد الاعطـاء للفقراء ، ان المسألة عنده ثورة كاملة بمعنى تدمير كل شيء .

البرنسيس : ليس من حقي أن أتطفل على شئونكم العائلية ، ولكن اذا سمحت لي ...

ماري ايفانوفا : أوه ، ليس هناك أي تطفل ، بل بالعكس ، لقد أصبحت أنظر اليك الآن كفرد من أفراد الأسرة ، وخاصة بعد أن ...

البرنسيس : انني أشير عليك أن تحددي له مطالبك بصراحة ووضوح ، وأن تصلي معه الى اتفاق واضح محدد .

ماري ايفانوفا : (في حرارة واهتياج) ، انه لا حدود عنـــده ! انه يريد أن

يعطى كل شيء ، يهب كل شيء . تصورى أنه يريد منى الآن فى سنى هذا أن أصبح طباخة وغسالة !

البرنسيس : كلا ، أهذا معقول ؟ انه ليكون أمرا فى منتهى الشذوذ !

مارى ايفانوف : (تأخذ خطابا من جيبها) ، ما أسعدنى ، ان الفرصة قد أتيحت لنا لكى نجلس هنا على انفراد ، وباستطاعتى أن أحدثك عن كل شيء . اليك مثلا ، لقد كتب الى هذا الخطاب بالأمس ، دعينى أقرأه لك.

البرنسيس : ماذا ؟! يكتب لك خطابات ، مع أنكما تقيمان معا فى نفس البيت ؟ ان هذا غريب ... غريب جدا !

مارى ايفانوفا : كلا ، من هذه الناحية فانى أفهمه جيدا ، انه ينفعل جدا ويهتاج عندما يتحدث ، حتى خشيت على صحته فى بعض الفترات . ولذلك فهو يؤثر أن يكتب لى .

البرنسيس : وماذا كتب لك ؟

مارى ايفانوفا : (تقرأ) « انك تلومينني على أننى قلبت نظام حياتنا الماضية، دون أن أقدم لك بديلا لهذه الحياة ، ودون أن أحدثك بشيء عن خططى وبرنامجى لحياتنا العائلية المقبلة . ولعل السبب فى ذلك ، اننا كلما حاولنا أنا وأنت بحث هذا الموضوع ، اهتاجت مشاعرنا ، فلم نستطع المضى فى معالجة الأمر ، وهذا ما جعلنى أفكر فى الكتابة اليك . لقد قلت لك أكثر من مرة انه لم يعد باستطاعتى أن أواصل الحياة بالطريقة التى عشناها حتى الآن ، ولست بقادر فى هذا الخطاب أن أشرح طويلا ، لماذا وصلت الى هذه الحالة ، ولماذا قررت نهائيا اننا يجب أن نعيش وفق تعاليم المسيح .

على أننى أعرض عليك أمرا من اثنين ، اما أن تقتنعى بالحق وتسيرى معى باختيارك وارادتك ، أو أن تؤمنى بى وتعهدى بنفسك الىّ ثم تتبعيننى . (تتوقف عن المطالعة) ، ولكنى لا أستطيع أن أفعل لا هذا

ولا ذاك ، فليس من الضرورى مطلقا أن أعيش كما يريدنا أن نعيش ، ان علىّ أن أعمل حسابا لحياة الأطفال ومستقبلهم ، وعلى هذا لا يمكننى الاعتماد عليه بحال .

(تعاود القراءة) .

« واليك خطتى : سوف نعطى كل أرضنا للفلاحين ، على أن نحتفظ لأنفسنا بـ ١٣٥ فدانا ، بخلاف البستان وحديقة المنزل والمرعى الذى يجاور النهر ، وسنحاول أن نعمل بأنفسنا ، ولكننا لن نرغم أطفالنا أو أى شخص آخر على مشاركتنا العمل . وسوف يدر علينا هذا الجزء الذى سنحتفظ به ، خمسين جنيها فى السنة .

البرنسيس : خمسون جنيها فى السنة ، مع وجود سبعة أطفال ؟ أهذا ممكن ؟

مارى ايفانوفا : واليك تفاصيل خطته بعد ذلك كاملة : وعلينا أن نهب هذا المنزل ونحوله الى مدرسة ، أما نحن فنعيش فى الكوخ المؤلف من حجرتين والذى كان يقيم فيه البستانى .

البرنسيس : حقا لقد بدأت الآن فقط ، أرى أن هناك شيئا غير عادى فى الموضوع ! وبماذا جاوبته على هذا الخطاب ؟

مارى ايفانوفا : لقد قلت له اننى لا أستطيع قبول مشروعه ، ولو كان الأمر قاصرا علىّ لاتبعته حيث يريد ، ولكن هناك أولادنا . تصورى أننى ما زلت أرضع طفلنا الصغير نيقولاس ، فكيف أستطيع أن أحطم كل شىء هكذا كما يريد ؟ وهل كان هذا هو ما اتفقت معه عليه عندما تزوجنا ، وهل بقدرتى الآن فى مثل سنى أن أفعل ما يطلبه منى ، حتى لو أننى أردت ؟ اننى لم أعد شابة أو قوية ، لقد هدّ قواى حمل تسعة أطفال وارضاعهم ثم تربيتهم .

البرنسيس : لم يدر بخلدى مطلقا أن الأمور وصلت الى هـذا الحد البعيـد .

مارى ايفانوفا : أجل . هذا هو الحد البعيد الذى وصلت اليـه الأمور ، ولست أعرف الى أين ستذهب أبعد من ذلك ؟ لقد تنازل بالأمس عن الايجار لعائلة ديمترونكا الفلاحين ، وليته يقف عند هذا الحد ، انه يريد أن يعطيهم الأرض التى يزرعونها دفعة واحدة .

البرنسيس : أوه ، لا ... أحسب أنه يجب عليك أن لا تسمحى له بفعـل شىء من هذا . ان واجبك الأول هو أن تحمى أولادك ، واذا كان قـد أصبح بحيث لا يستطيع ادارة أملاككم ، فليتنازل لك عنها .

مارى ايفانوفا : ولكنى لا أريد ذلك .

البرنسيس بل يجب أن تأخذيها لمصلحة أولادك ، أطلبى منه أن ينقـل ملكيتها اليك .

مارى ايفانوفا : لقد طلبت منه أختى الكسندرا ذلك ، فقال لها انه لا حق له فى فعـل شىء من ذلك ، فالأرض ملك لزارعيهـا ، وأن واجبـه يحتم عليه أن يعطيها للفلاحين الذين يزرعونها .

البرنسيس : لقد اقتنعت الآن فقط ، ان الأمر أخطر بكثير ممـا كنت أتصور !

مارى ايفانوفا : والقسيس ، ! القسيس ، انه يأخذ جانبه أيضا .

البرنسيس : أجل ، لقد لاحظت ذلك بالأمس .

مارى ايفانوفا : وهذا ما حمل أختى الكسندرا على السفر الى موسكو ، فهى تريد أن تبحث الأمر مع أحد المحامين ، ولكى تبحث عن الأب جيراشيم فقد يكون باستطاعته أن يحدث بنفوذه تأثيرا على الموقف .

البرنسيس : بالتأكيد ، فلست أتصور مطلقا أن المسيحية تطلب منا أن ندمر عائلاتنا وأولادنا

ماري ايفانوفا : ولكنه لن يصدق الأب جيراشيم نفسه ، انه ثابت لا يتحول وبامكانك أن تقدري كيف لا أستطيع أن أرد عليه أو أناقش حججه ، ولعل مما يزيد فى صعوبة الأمر بالنسبة لى أنه يبدو محقا فيما يقول .

البرنسيس : ذلك لأنك تحبينه .

ماري ايفانوفا : لست أدرى ، ولكن هذا الموقف مؤلم ، وفظيع جدا ، لقد أصبحت حياتنا كلها الآن فى اضطراب وقلق ، فهل هذه هى المسيحية ؟

(تدخل المربية) .

المربيـــة : هل تتكرمين بالمجىء ؟ لقد استيقظ نيقولاس الصغير ، وهو يبكى فى طلبك .

ماري ايفانوفا : سأحضر حالا ، عجبا ! كلما اهتاجت أعصابى ، فان هذا الولد يصاب على الفور بمغص فى بطنه ، ها أنذا قادمة ...

(يدخل نيقولاس ايفانوفتش من باب آخر وفى يــده قطعة من الورق) .

نيقولاس ايفانوفتش : كلا ... كلا ، هذا مستحيل !

ماري ايفانوفا : ماذا حدث ؟

نيقولاس ايفانوفتش : تصورى ! بطرس الفلاح سوف يسجن من أجل بعض أشجار الصنوبر الملعون .

ماري ايفـانوفا : وكيف ذلك ؟

نيقولاس ايفانوفتش : الأمر بسيط جدا ، لقد قطع احدى أشجار صنوبرنا ، فأبلغوا القاضى ، فحكم عليه بالسجن ثلاثة شهور. وجاءت زوجته تعلمنى بالنبأ.

ماري ايفـانوفا : وهلا يمكن عمل شىء ؟

نيقولاس ايفانوفتش : لم يعد من الممكن عمل شىء الآن . ولكن الحل الوحيد هو أن لا يمتلك الانسان غابة على الاطلاق ، ولقد اعتزمت نهائيا ألا أمتلك

شيئا منها . أما الآن فيجب علىّ أن أذهب لأبحث اذا كان من الممكن اصلاح بعض ما أفسدناه .

(يخرج الى الشرفة فيقابل بوريس ولوبا) .

لـــوبا : صباح الخير يا أبى (تقبله) الى أين أنت ذاهب ؟

نيقولاس ايفانوفتش : جئت لتوى من القرية ، ولكنى عائد اليهـا . انهم يقذفون بانسان جائع آخر الى السجن لأنه ....

لـــوبا : أظن أنه بطرس

نيقولاس ايفانوفتش : نعم انه بطرس .

(يخرج ثم تتبعه مارى ايفانوفا) .

لـــوبا : (تجلس بازاء السيماور) هل تفضل شرب القهوة أو الشاى؟

بوريس : كما تشاءين .

لـــوبا : نفس القصة ولست أرى نهاية لها .

بوريس : لا أستطيع أن أفهم أباك ، اننى أعرف أن الناس فقراء وجهلة ويجب أن يساعدوا ، ولكن عن طريق غير التشجيع على السرقة .

لـــوبا : ولكن كيف ؟

بوريس : باستخدام كل نشاطنا ، كل ما لدينا من علم ووضـعه فى خدمتهم ، لا بتضحية الانسان نفسه .

لـــوبا : وهذا ما يقول أبى انه يريده .

بوريس : الحق أننى لست أفهم . ان باستطاعة الانسان أن يخدم الناس دون أن يحطم حياته ، وهذا هو الطريق الذى سأنظم عليه حياتى ، اذا كان باستطاعتك ....

لـــوبا : اننى أريد كل ما تريد ، ولست أخشى بجانبك شيئا .

بوريس ولكن هل باستطاعتك أن تتنازلى عن هذه الأقراط والحلى والملابس ؟

لـــوبا : ان الحلى يمكن أن تباع ، والملابس تصنع بطريقة أبسط ، ولكن ذلك لا يعنى على ما أظن أن يجعل الانسان من نفسه — زكيبة —

بوريس : بودى لو عاودت الحديث مع أبيك فى هذا الموضوع ، هل تظنين أننى أضايقة اذا تبعته الى القرية ؟

لـــوبا : مطلقا ، على العكس انى أراه قد أصبح متعلقا بك جدا ، وبالأمس كان كل حديثه موجها اليك .

بوريس : (يفرغ من قهوته) ، حسنا ، اننى ذاهب اليه .

لـــوبا : أجل ، افعل ذلك ، أما أنا فسوف أذهب لايقاظ ليزا وتونيا .

ســـــتار

« المنظـر الثـــانى »

(شارع فى القرية ـ ايفان زيابريف مغطى بمعطف من جـــلد الخراف ويرقد الى جوار كوخ) .

ايفان زيابريف : (مناديا ابنته) ، مالاشكا !

(تخرج فتاة نحيلة وهى تحمل طفلا بين ذراعيها ، والطفـل يصيح) .

احضرى لى ماء لأشرب .

(تدخل مالاشــكا الى الكوخ حيث لا يـزال صراخ الطفــل مسموعا ـ تحضر وعاء مملوءا بالماء) .

ايفان زيابريف : لماذا تضربين الطفــل دائما وتحملينه على الصراخ ، سأقول لأمك .

مالاشــكا : قل لها كما تشاء ، ان الجوع هو الذى يجعله يصرخ هكذا .

ايفان زيابريف : (وهو يشرب) ، ولماذا لا تذهبين الى جيراننـــا الديميكين وتسألينهم بعض اللبن .

مالاشــكا : لقد ذهبت ، فلم يكن عندهم أى قطـرة من اللبن ، بل لم يكن هناك أحد فى البيت .

ايفان زيابريف : (يتأوه) ، أوه .. لو كان باستطاعتى أن أموت ! هل دقوا فى القصر ناقوس العشاء .

مالاشــكا : أجل ، لقد فعلوا . ها هو السيد قادم .

(يدخل نيقولاس ايفانوفتش) .

نيقولاس ايفانوفتش : لماذا خرجت الى هنا ؟

ايفان زيابريف : الذباب كثير فى الداخل ، والحر شديد جدا .

نيقولاس ايفانوفتش : اذن فأنت تشعر بالدفء الآن .

ايفان زيابريف : أجل ، انى الآن أحترق بأكملى .

نيقولاس ايفانوفتش : وأين بطرس ، أهو فى البيت ؟

ايفان زيابريف : كيف يكون فى البيت فى هذه الساعة ؟! لقد ذهب الى الحقل ليجمع القمح .

نيقولاس ايفانوفتش : ولكننى سمعت أنهم يريدون أن يضعوه فى السجن .

ايفان زيابريف : هو ذاك ، فقد ذهب البوليس وراءه فى الحقل .

(تدخل امرأة حبلى تحمل حزمة من نبات الشوفان وجاروفا ، وبمجرد ظهورها تضرب على الفور مالاشكا على مؤخرة رأسها) .

المـــرأة : كيف تتركين الطفل يبكى هكذا ؟ ألا تسمعين صياحه ؟ أكل ما تعرفينه هو الجرى فى الشوارع ؟

مالاشـــكا : (وهى تبكى وتصيح) — لقد جئت الآن فقط لأن أبى طلب منى أن يشرب .

المـــرأة : يا ويلك منى .

(ترى سيد الأرض نيقولاس ايفانوفتش) .

أسعدت صباحا يا سيدى ، ان الأولاد متعبون جـــدا ، لقد تحطمت قواى نهائيـــا بعـــد أن أصبح كل شىء على عاتقى ، وكأنه لا يكفيهم ذلك ، فهم يريدون أن يأخـــذوا الشخص الوحيد الذى يعمل الى السجن ، بينما يتمرغ هذا الجلف هنا على الأرض .

نيقولاس ايفانوفتش : ما هذا الذى تقولين ؟! ان الرجل مريض جدا .

المـــرأة : مريض جدا ؟! وأنا ، ماذا عنى أنا ؟ ألست أنا أيضا مريضة ؟ انه مريض عندما يكون هناك عمل ، أما عندما يجد الفرصة ليمرح ، أو ليشد شعرى فانه لا يكون مريضا ، ليته يموت كالكلب ، ماذا يهمنى ؟

نيقولاس ايفانوفتش : كيف تتفوهين بمثل هذه الأقوال الشريرة على زوجك .

المـــرأة : أجل ، أنا أعلم أن ما أقوله شر وخطيئة ، ولكن ماذا أستطيع أن أفعل لأكبت شعورى أكثر من ذلك . اننى أنتظر مولودا جـديدا ، فى الوقت الذى يجب علىّ فيه أن أعمل عمل اثنين . ان كل الناس قـد جمعوا محصولهم ، اما نحن فلم نجمع الا ربع ما نملك من الشوفان . ويجب أن أتم ربط الحزم ، وليس باستطاعتى أن أفعل ذلك ، لأنه يجب علىّ آن أحضر الى هنا لأطمئن على الأطفال .

نيقولاس ايفانوفتش : اطمئنى ، فان الشوفان سوف يحصد ويجمـع ، وسـوف أستأجر لك من يربط الحزم أيضا .

المـــرأة : ان ربط الحزم ليس أمرا صعبا ، اننى أستطيع أن أقوم به بنفسى ، اذا أمكن ضم المحصول سريعا .
(مغيرة الحديث) ماذا تظن يانيقولاس ايفانوفتش ، هـل سيموت ؟ هل هو مريض جدا ؟

نيقولاس ايفانوفتش : لست أعرف اذا كان سيموت ، ولكنه مريض جدا من غير شك ، وأظن أنه يجب علينا أن ننقله الى المستشفى .

المـــرأة : (منزعجة) آه ، يا الهى (تشرع فى البكاء)
لا ... لا تأخذه بعيدا عنى ، دعه يمت هنا . (لزوجها الذى يغمغم) ، ماذا بك ؟ .

ايفان زيابريف : اننى أريد الذهاب الى المستشفى ، اننى أعامل هنا أسوأ من معاملة الكلب .

المـــرأة : لست أدرى كيف أتصرف ، اننى أكاد أفقد عقلى ، مالاشكا ، اذهبى وأعدى العشاء .

نيقولاس ايفانوفتش : وماذا لديكم كطعام للعشاء ؟

المـــرأة : ماذا لدينا ؟ بعض البطاطس والخبز وليس عنـــدنا الكفاية منهمـــا .

(تدخل الى الكوخ – صوت خنزير ، وصـــــوت الأطفال وهم يتصايحون فى الداخل)

ايفان زيابريف : (يتأوه) ، آه ، يا الهى ، لو كان باستطاعتى أن أموت !

(يدخل بوريس) .

بوريس : هل يمكن أن أكون نافعا فى شىء ؟

نيقولاس ايفانوفتش : لا يستطيع أى انسان هنا أن يكون نافعا لانسان آخر . ان الشر متأصل وعميق الجذور ، وباستطاعتنا هنا أن نكون نافعين لأنفسنا فقط ، بأن نتأمل من أى العناصر وعليها نبنى سعادتنا . ها هى ذى أسرة تتألف من خمسة أطفال والأم حبلى والأب مريض ، ولا يوجد عنـــدهم ما يأكلونه سوى البطاطس . وفى هذه اللحظات بالذات يتقرر مصيرهم بالنسبة للعام القادم ، وعما اذا كان سيتوفر لديهم الطعام الكافى لقوتهم طوال العام ، أم أن ذلك لن يكون . ان المساعدة غير ممكنة ، أو بالأحرى غير مجدية فلنفرض اننى استأجرت لهم عاملا ، فمن سيكون هذا العامل ، انه لن يكون الا رجلا قد هجر مزرعته ، اما لأنه سكير ، أو لأنه بائس .

بوريس : عفوا ، ولكن اذا كان ذلك هو الوضع ، فماذا تفعل هنا الآن؟

نيقولاس ايفانوفتش : اننى أدرس مكانى فى الحياة .أنظر الى هؤلاء الذين ينسقون حدائقنا ويشيدون بيوتنا ويصنعون ملابسنا ، ويطعموننا ويكسوننا .

(يمر فلاحون وهم يحملون المناجل والجواريف فينحنون لرؤية السيد ويمرون) .

(نيقولاس يستوقف واحدا منهم) :

قل لى « يا أرميل » ألا تقبل العمل فى جمع محصول هؤلاء الناس .

ازميـــل : (يهز رأسه) أفعل ذلك من كل قلبى ، ولكنى لا أستطيع مع

الأسف ، فانى لم أجمع محصولنا بعد ، وها نحن ذاهبـون لضم بعض المحصول ، ولكن هل ايفان فى حالة النزع حقا ؟

فلاح آخر : هذا سيبستيان ، وقد يستطيع أن يقوم بهذا العمل ، قل لى يا عم سيبستيان ، انهم فى حاجة الى رجل يجمع لهم المحصول .

سيبستيان : ولماذا لا تقوم أنت بهذا العمل ؟! انه عمل يوم واحد فى مثل هذا الوقت من السنة ، الذى يهيىء لنا الطعام طول العام .

(ينصرف الفلاحون) .

نيقولاس ايفانوفتش : انهم جميعا أنصاف جوعى ، انهم لا يملكون سـوى الخبز والماء ، انهم مرضى وكثير منهم طاعنون فى السن . هذا الرجـل العجوز مثلا انه مصاب بفتق ، وبالرغم من مرضه ، فهو مضطر للعمل من الرابعة صباحا حتى العاشرة مساء ، مع أنه نصف حى كما ترى . ونحن ؟ كيف يمكن بالرغم من عرفاننا بهذه الحقائق أن نواصل حياتنا فى هدوء ثم نظل نعد أنفسنا مسيحيين ؟ بل لندع المسيحية جانبا ، أيمكننا أن لا نعـد أنفسنا حيوانات ؟

بوريس : ولكن ما الذى يقدر الانسان أن يفعله ؟

نيقولاس ايفانوفتش : علينا أن لا نساهم فى هذا الشر ، بأن لا نملك أرضـا ، أو نستغل كدح الآخرين ، أما كيف نستطيع أن ننظم ذلك ، فلست أعرف حتى الآن . ولكن الشيء الثابت ، بالنسبة لى على الأقـل ، اننى عشت دون أن أعرف من أنا ، ولا كيف أعيش ، لم أكن أعرف اننى ابن الله ، وأننا جميعا أبناء الله ، أى أننا جميعا أخوة فى الله ، ولكن ما أن تكشفت لى هذه الحقيقة ، حتى أدركت أننا جميعا لنا حقوق متساوية فى هـذه الحياة ، وهكذا انقلبت حياتى رأسا على عقب . وليس باستطاعتى أن أشرح ذلك الآن بالتفصيل ، وحسبى أن أقول لك اننى كنت أعمى ، كما هو شأن باقى أفراد أسرتى فى البيت . أما الآن فقد تفتحت عيناى ، ولم

يعد باستطاعتى أن أغض الطرف عن رؤية هذه المآسى ، وأن أراها كلها . لا ، لم أعد قادرا على مواصلة الحياة على هـذا الأسلوب الذى نعيش فيه . وقد يستمر ذلك بعض الوقت أيضا وعلى أية حال يجب أن ننظر الآن ، ما الذى باستطاعتنا أن نفعله فى هذه المشكلة الحاضرة .

(يدخل رجل بوليس وبطرس وزوجته ، وغلام صغير)

بطـرس : (يرتمى على قدمى نيقولاس) ، سامحنى .... سامحنى بحق الله والا خرب بيتى ، كيف تستطيع زوجتى أن تجمع المحصول ؟ لو كان من الممكن أن يطلق سراحى بكفالة ؟

نيقولاس ايفانوفتش : سوف أذهب الآن وأعارض فى أمر حبسك (مخاطبا رجـل البوليس) ألا يمكنك أن تخلى سبيله فى الوقت الحاضر ؟

رجل البوليس : ان الأوامر المعطاة لى هى أن أقوده الى مركز البوليس فورا.

نيقولاس ايفانوفتش : (لبطرس) ، حسن ، أذهب الآن اذن ، وسوف أبذل لك آخر جهدى وطاقتى . ان هذا الظلم هو من غير شك نتيجة أعمالى وتصرفاتى. كيف يمكن للانسان أن يمضى فى الحياة على هذا الأسلوب ؟!

(يخرج)

ســـــتار

« المنظر الثالث »

(فى البيت الريفى ــ الدنيا تمطر فى الخارج ــ حجرة استقبال وفيها بيانو كبير ــ تونيا فرغت لتوها من عزف سوناتا لشومان) وما تزال جالسة على البيانو ستيبا واقف الى جوار البيانو وبوريس جالس ــ لوبا ، ليزا ، متروفان أرميلتش والقس الصغير ــ الجميع لا يزالون متأثرين بالموسيقى) .

لوبا : هذا الـ «Andante» أليس رائعا ؟

ستيبا . كلا ، بل الـ « Scherzo » هو الأروع ، ولو أن القطعة كلها جميلة ورائعة .

ليزا : جميل جدا !

ستيبا : لم تكن لدى أى فكرة عن كونك فنانة مجيدة الى هذا الحد ، لقد كنت تعزفين باقتدار وأستاذية ، ومن الواضح أنك لا تصادفين أى صعوبة فى عزف أى دور ، أنك تحسّين الدور بمشاعرك واحساسك ، ثم تؤدينه بهذه الرقة والابداع .

لوبا : أجل ، وفى اعتداد وشموخ .

تونيا : عجبا : لقد كنت أشعر طوال الوقت أنها لم تكن كما أحب أن تكون ، لقد كان هناك قسم كبير لم أستطع التعبير عنه .

ليزا : أى عزف يمكن أن يكون أحسن من ذلك ؟ . لقد كان رائعا .

لوبا : حقا ! ان شومان مبدع ، ومع ذلك فان شوبان هو الذى يأخذ بمجامع القلب بكل قوة .

ستيبا : انه أكثر شاعرية .

تونيـــا : لا محل هناك للمقارنة بين الرجلين .

لـــوبا : هل تعرفين معزوفته التمهيدية .

تونيـــا : تلك التى تسمى « تمهيد جورج صاند »

(تعزف مقدمتها) .

لـــوبا : لا ، ليست هذه ، تلك جميلة جدا ، ولكنها أصبحت مبتذلة لكثرة ما عزفت ، ولكن اعزفى هذه المقطوعة .

تونيـــا : (تعزف ما تستطيع عزفه ثم تتوقف وتتكلم)

ان هذه قطعة جميلة جدا ، ان فيها عنصرا أساسيا ، أقدم من الخليقــة نفسها .

ســـتيبا : (يضحك) ، أجل ... أجل ، أكمليها ، ولكنك متعبة جدا من غير شك ، لقد جعلتنا نستمتع بصبح جميل ، فشكرا لك .

تونيـــا : (تنهض وتنظر من النافذة) ، ان هنـــاك عددا آخــر من الفلاحين ينتظر فى الخارج .

لـــوبا : هذا هو السر فى روعة الموسيقى وتأثيرها العميق ، اننى أفهم موقف شاول ، على الرغم من أن الشياطين لا تعذبنى ، عندما كان يلجأ الى الموسيقى لتنجيه من هذا العذاب . ليس هنـــاك فن فى الوجــود يستطيع أن ينسى الانسان كل شىء آخر كما تفعل الموسيقى .

(تقترب من النافذة وتخاطب الفلاحين) .

من تريدون ؟

فلاحـــون : نريد أن نقابل نيقولاس ايفانوفتش .

لـــوبا : انه ليس هنا ، وعليكم أن تنتظروا .

تونيـــا : (مخاطبة لوبا) ومع ذلك فسوف تتزوجين بوريس الذى لا يفهم شيئا عن الموسيقى !

لـــوبا : أوه ، طبعا ... لا .

بوريس : (شـــارد الذهن) . الموسيقى !؟ أوه ، كلا ، اننى أحب الموسيقى ، أو بالأحرى لست أكرهها ، ولكنى أفضـــل شيئا أبسط . أفضل الأغانى .

تونيـــا : ولكن أليست هذه السوناتا بديعة ؟

بوريس : بديعة أو غير بديعة ، ان الشىء الرئيسى فى الموضوع انهـا ليست مهمة الى هذه الدرجة ، وانه ليؤذينى أن أفكر فى الحيـاة التى يحياها الناس والأهمية الكبيرة التى يعلقونها على الموسيقى .

(الجميع يأكلون من الحلوى الموضوعة على المائدة) .

لـــيزا : ما أجمل أن يكون للانسان خطيب ، وأن تقدم له الحلوى !

بوريس : ليس هذا من عملى ، انه من صنع ماما .

تونيـــا : وقد أحسنت صنعا .

لـــوبا : (مغيرة الموضوع) ، ان الموسيقى ثمينة ، لأنها تستولى على حواسنا ، وتأخذ بألبابنا وتحملنا بعيدا عن عالم الواقع ، وقد يبدو كل شىء فى بعض الأحيان كئيبـا ، حتى نشرع فجـأة فى عزف الموسيقى ، فاذا بكل شىء يصبح مبهجا حولنا من جديد .

لـــيزا : وما رأيكم فى « فالسات » شوبان ، لقد ابتذلت ، وبالرغم من ذلك ...

تونيـــا : مثل هذه .... (تعزف)

(يدخل نيقولاس ايفانوفتش . يسلم على بوريس وتونيـا وستيبا وليزا وميتروفان أرميلتش والقسيس) .

نيقولاس ايفانوفتش : أين أمكم ؟

لـــوبا : أظن أنها فى حجرة الطفل .

(ستيبا ينادى الخادم) .

ما أروع عزف تونيا على البيانو يا أبى ! أين كنت ؟

نيقولاس ايفانوفتش : فى القرية .

(يدخل أفاناس الخادم) .

ستيبا : احضر سيماور آخر .

نيقولاس ايفانوفتش : (يحيى الخادم ويصافحه) صباح الخير .

(الخادم يرتبك — يخرج — يخرج وراءه نيقولاس ايفانوفتش)

ستيبا : مسكين أفاناس ، لقد كان مرتبكا جدا ! ، أنا لا أستطيع أن أفهم والدى ، انه يتصرف كما لو كنا متهمين بارتكاب بعض الجرائم .

(يدخل نيقولاس ايفانوفتش ثانية)

نيقولاس ايفانوفتش : لقد هممت بأن أذهب الى حجرتى دون أن أخبركم بما أحس به (لتونيا) . وأرجو أن تغفرى لى ما سوف أقوله ، اذا كان سيسبب لك بعض الضيق باعتبارك ضيفتنا ، فلست قادرا عن أن أرد نفسى عن قول ما سوف أقوله .

تقولين يا ليزا ان تونيا تعزف جيدا ! وأنتم هنا سبعة أو ثمانية من الشبان والشابات اللائى يفضن بالصحة والحيوية . لقد نمتم حتى الساعة العاشرة ، لقد أكلتم وشربتم ، وما زلتم تأكلون ، وتعزفون وتتدارسون الموسيقى بينما الحال فى القرية حيث جئت لتوى ، كان الجميع قد استيقظوا من الثالثة صباحا ، أما هؤلاء الذين كانوا يرعون الخيل فلم يناموا على الاطلاق ، ان الجميع يعملون بدون استثناء ، الشيوخ والشبان ، المرضى والضعفاء ، الأطفال والأمهات المرضعات ، حتى الحبالى من النساء ، كلهم يعملون ويكدون بآخر قواهم ، ليكون باستطاعتنا أن نجتمع هنا ونعزف الموسيقى ، ونأكل ثمرة كدهم ، وليت هذا هو كل شيء ....

ففى هذه اللحظة بالذات يقودون الى السجن الرجـل الوحيـد الذى يستطيع أن يكسب خبز عائلته ، لأنه قطع واحدا من مائة ألف من أشجار الصنوبر التى تنمو فى الغابة التى يزعمون أنها ملكى ، بينما نجلس نحن هنا متدثرين فى ملابسنا الغالية ، بعد أن تناولنا حمام الصبـاح وخلعنا أثواب الليل فى حجرات النوم ليتولى غسلها عنا عبيـد أرقاء ، نجلس لنناقش شومان وشوبان وأيهما يستطيع أن يثير مشاعرنا أكثر من زميله ، أو بالأحرى أيهما يستطيع أن يشفينا من السأم والملل الذى نعيش فيه ، ونحس به .

هذه هى الخواطر التى ملأت علىّ نفسى ، وأنا أمر من خلالكم فأحسست أن واجبى يحتم علىّ أن أطلعكم عليها .

والآن فكروا ، هل من الممكن الاستمرار فى الحياة على هذه الوتيرة ؟

(يتوقف عن الكلام وقد استبد به الاهتياج) .

ليـزا : حق ، هذا حق .

لـويا : اذا كان الانسان سيسمح لنفسه أن يستسلم لأفكاره فى هذه الناحية فقد لا يصبح قادرا على أن يعيش .

ستيبا : ولماذا ؟ اننى لا أستطيع أن أرى العلاقة بين الحقيقة المقررة وهى وجود بعض الفقراء وبين تحدثنا عن شومان . ليس هناك تعارض بين الأمرين واذا كان الانسان ...

نيقولاس ايفانوفتش : (مقاطعا فى غضب) اذا كان الانسان ليس له قلب ، اذا كان الانسان قد من خشب ...

ستيبا : حسن ، سأمسك لسانى .

تونيـا : انها مشكلة رهيبة ، انها مشكلة العصر ، ولا يجب أن نفر من مواجهتها خوفا من استعصائها على الحل ، بل يجب أن نواجهها حتى يكون باستطاعتنا أن نحلها .

نيقولاس ايفانوفتش : اننا لا نستطيع الانتظار ريثما تحل المشكلة بواسطة اجراءات عامة [1] ان الموت مصيرنا جميعا ، ان لم يكن اليوم فغدا . فكيف أستطيع الحياة وسط هذا الصراع النفسى الذى يعتلج فى صدرى .

بوريس : الحق انه لا يوجد سوى طريق واحد ، وهو ألا يساهم الانسان فى هذا الموضوع على الاطلاق .

نيقولاس ايفانوفتش : عفوا ، أرجو أن تسامحونى اذا كنت قد آذيت مشاعركم بحديثى ، فلم يكن باستطاعتى أن لا أعبر عما أحس به .

(يخرج) .

ستيبا : (مخاطبا بوريس) ، كيف نستطيع ألا نساهم فى الموضوع كما تقول ، وحياتنا كلها مرتبطة به ؟

بوريس : وهذا هو ما حدا بنيقولاس ايفانوفتش الى القول بأنه ينبغى على الانسان ألا يتملك شيئا على الاطلاق ، وأن نغير طريقة حياتنا وأن لا نعيش بحيث يخدمنا الآخرون ، بل نخدم نحن الآخرين .

تونيا : آه ، أرى أنك قد انحزت نهائيا الى جانب نيقولاس ايفانوفتش .

بوريس : أجل ، لقد أصبحت أفهم الموضوع الآن لأول مرة ، وبعد أن رأيت ما رأيت فى القرية ، وليس عليكم الا أن تخلعوا المنظار الذى اعتدنا أن ننظر به الى حياة الناس لكى تدركوا على الفور العلاقة المباشرة بين آلامهم ومسراتنا ، حسبنا هذا ؟

ميتروفان ارميتش : آجل ، ولكن العلاج لا يكون بأن يحطم الانسان حياته .

ستيبا : انه لغريب كيف انه على الرغم من أننى وميتروفان على طرفى نقيض دائما ، ومع ذلك فنحن ننتهى الى نفس النتائج .

---

(1) هنا ما يشعر بأن تولستوى كان يعتقد أن الثورة الروسية آتية لا ريب فيها ، بحكم طبائع الأشياء ، ولكنه كان يريد من ناحيته أن لا يشارك فى الأثم الذى كانت تغرق فيه أفراد طبقته . (المترجم)

ان هذه هى نفس كلماتى « أن لا يحطم الانسان حياته » .

بوريس : طبعا لأن كليكما يريد أن يحيـا حياة طروبة ، فهو يريد أن ينظم الحياة بالأسلوب الذى يحقق له هذا المرح والبهجة . فانت ياستيبا تريد الابقاء على النظام الحالى لأنه يحقـق لك ما تريد ، اما ميتروفان ارميليتش فهو يريد نظاما جديدا لتحقيق هذا الغرض نفسه .

(لوبا وتونيا يتهامسان معا ـ تونيا تذهب الى البيانو وتعزف : « أمسية لشوبان » ـ سكون عام) .

ستـيبا : رائع ، هذا رائع ، انه يحل كل شىء !

بوريس : بالعكس ، انه يزيد الأمور تعقيـدا وغموضـا ويؤجل حل كل شىء .

(بينما تعزف تونيا ، تدخل مارى ايفانوفا والبرنسيس فى هدوء وسكينة ثم يجلسان وينصتان فى سكون وصمت) .
قبل نهاية القطعة الموسيقية ، تسمع أجراس عربة فى الخارج) .

لـوبا : انها خالتى (تخرج لتقابلها) .

(تستمر الموسيقى ـ تدخـل الكسندرا ايفـانوفا والأب جيراشيم ، وهو قس يحمل صليبا معلقا حول رقبته ، ويوجد معهما مسجل عقود . الجميع يقفون عند دخول القس وتتوقف الموسيقى) .

الأب جيراشيم : أرجوك أن تستمرى انها بديعة جدا .

(تقترب منه البرنسيس لتنال بركته وكذلك يفعـل القس الصغير) .

الكسندرا ايفانوفا : لقد وفيت لكم بوعدى ونفذت كل ما تعهدت بالقيام به . لقـد وجـدت الأب جيراشيم ، وها أنتم ترون أننى نجحت فى اقناعه بالحضور معى الى هنا بدلا من ذهابه الى كورسك التى كان فى طريقه اليها ، كما أحضرت لكم مسجل العقود ، وقد أعد جميع الأوراق ، وعقد التنازل عن الأرض ، بحيث لا ينقص سوى التوقيع فقط .

ماري ايفانوفا : ألا تتناولون أولا طعام الغداء ؟

(يضع مسجل العقود بعض الأوراق على المائدة ثم يخرج) .

ماري ايفانوفا : كم أنا شاكرة ومدينة للأب جيراشيم تفضله بالحضور !

الأب جيراشيم : لم يكن باستطاعتى أن أفعل غير ذلك ، على الرغم من أننى كنت مسافرا الى بلدى ، ولكننى شعرت كمسيحى أن واجبى يحتم علىّ فى الدرجة الأولى أن أزوره .

(الكسندرا ايفانوفا تهمس للشبان والفتيات ، فيتشاورون فيما بينهم وينسحبون الى الشرفة ما عدا بوريس . القس الشاب يعتزم الانسحاب بدوره) .

الأب جيراشيم : (مخاطبا القس الشاب) ، كلا يا بنى ، انك كراع وأب روحى يجب أن تبقى هنا ، بل قد يفيدك شخصيا ما سوف تسمعه لتفيد به الآخرين ، ابق هنا اذا لم يكن لدى مارى ايفانوفا أى اعتراض .

ماري ايفانوفا : على العكس ، انى أحب الأب فاسيلى كما لو كان أحد أفراد أسرتنا ، حتى لقد استشرته بالذات فى الموضوع ، ولكن صغر سنه جعله قليل التأثير .

الأب جيراشيم (١) طبعا .... طبعا .

الكسندرا ايفانوفا : (مقتربة من جيراشيم) حسن ، ها انت ترى بنفسك يا أبانا جيراشيم أنك الشخص الوحيد الذى يستطيع أن يعاون فى حل هذا المشكل واعادته الى الصواب .

ويجب أن تعرف أنه ذكى ، ومثقف جدا ، ولكن العلم كثيرا ما يضر كما تعرف ، انه يعانى لونا من ألوان الهوس ، فهو يتمسك بأن القانون المسيحى يحظر على الانسان امتلاك شىء ، ولكن هل هذا معقول ؟

الأب جيراشيم : انه اغراء الشيطان ، الكبرياء الروحى ، الاعتداد بالنفس ، لقد استطاع آباء الكنيسة أن يعالجوا بنجاح كل هذه الأمور .

---

(١) صور تولستوى شخصية الأب جيراشيم على نسق شخصية شهيرة فى عصره ، وهى شخصية الأب جون اسقف كرونستاد .

ولكن هل لك أن تحدثيني كيف ومتى حدث له ذلك ؟

ماری ایفانوفا : حسن ، أظن أنه يجب على أن أقص عليك كل شيء ... عندما تزوجنا ، كان لا يكترث للدين ، وهكذا عشنا طويلا وعشنا سعداء أجمل سنى حياتنا ، وهى العشرون سنة الأولى [1] ، ثم بدأ يفكر . وربما كان ذلك نتيجة موت أخته أو بتأثير مطالعاته ، على أية حال فقد بدأ يدمن التفكير ويطالع الأناجيل ، وفجأة أصبح متدينا جدا وبدأ يذهب الى الكنيسة كثيرا ، ويغشى الرهبان ، ومرة أخرى انقلب فجأة ، فتخلى عن ذلك كله وغير طريقة حياته كلها ، فبدأ يقوم بأعمال يدوية ، ولا يسمح للخدم بخدمته ، وفوق ذلك كله بدأ يهب أملاكه ، لقد أعطى بالأمس فقط غابة بكل ما فيها من أرض وأشجار لبعض الفلاحين ، وكان من الطبيعى أن يفزعنى ذلك ، فانى أم لها سبعة أولاد ، فأرجوك أن تتحدث معه فى الموضوع ، وسوف أذهب الآن لأسأله أن يقابلك .

(تخرج)

الأب جيراشيم : كثيرون هذه الأيام يتعثرون ، ولكن هل الضيعة ملك له أو لزوجته ؟

البرنسيس : انها ملكه هو ، وهذا هو سوء الحظ .

الأب جيراشيم : وما هى رتبته الرسمية ؟

البرنسيس : ان رتبته ليست عالية ، انها من درجة كابتن فى سلاح الفرسان على ما أعتقد وقد كان هو نفسه فى الجيش فيما مضى .

الأب جيراشيم : يوجد الآن كثيرون ينحرفون فى نفس الطريق ، فى أوديسا مثلا كانت توجد سيدة شغفت بتحضير الأرواح ، وبدأت تسبب عن هذا الطريق ضررا شديدا ، ومع ذلك فقد ساعدنا الله ووفقنا لاعادتها من جديد الى حظيرة الكنيسة .

---

(۱) هذا هو ما يدل على أن هذه الرواية كتبت فى آخر أيام تولستوى حيث يتحدث عن حياته الزوجية بعشرات السنين .

البرنسيس : ان الأمر الهام الذى أرجو أن تقدره هو أن ابنى فى سبيله للزواج بابنته ولقد أعطيت موافقتى على هذا الزواج . ولكن الابنة معتادة على حياة الترف بطبيعة الحال ، ويجب أن نهيىء لها أسباب الحياة الراقية دون أن تعتمد فى ذلك على ابنى اعتمادا كليا ، وان كنت أعترف أنه شاب قادر جدا بصورة غير عادية ومحب للعمل بحيث يعتبر رجلا ممتازا .

(تدخل مارى ايفانوفا ونيقولاس ايفانوفتش) .

نيقولاس ايفانوفتش : كيف حالك يا برنسيس ؟ كيف صحتك ؟

(للأب جيراشيم) عفوا ، لست أعرف اسمك [1]

الأب جيراشيم ألا تريد أن تتناول بركاتى الأبوية ؟

نيقولاس ايفانوفتش : كلا ، لا أريد .

الأب جيراشيم : اسمى جيراشيم سيدوروفتش . اننى مسرور لمقابلتك .

(يدخل خدم وهم يحملون طعام الغداء والنبيذ) .

الأب جيراشيم : طقس جميل ، ومفيد للمحصول .

نيقولاس ايفانوفتش : اننى أعرف أنك قد جئت الى هنا بناء على دعوة الكسندرا ايفانوفا لتنشلنى من وهدة أخطائى ، وتقودنى الى الطريق المستقيم ، الطريق الحق ، فاذا كان الأمر كذلك فلا حاجة بنا للمناورات والمحاورات ولنتجه فورا الى العمل . اننى لا أنكر أننى أخالف تعاليم الكنيسة ، لقد اعتدت أن أوافق عليها فيما مضى ، ولكنى تخليت عن ذلك فيما بعد . ولكنك تستطيع أن تكون على ثقة من أننى شديد الرغبة بكل عواطفى وقلبى أن أعرف الحق وأن أعيش فيه ، ولذلك فسوف أتقبله فورا بمجرد ايضاحه لى .

---

(١) انه يعرف أن القس هو الأب جيراشيم ، ولكنه لا يريد أن يخاطبه كقسيس ، بل يريد أن يعرف اسمه ولقبه حتى يخاطبه بهما كما جرت العادة فى روسيا ، حيث يجرى التخاطب بين النبلاء بذكر الاسم الكامل .
(المترجم الانجليزى)

الأب جيراشيم : ما الذى تعنيه بقولك . انك لا تؤمن بتعاليم الكنيسة ؟ فبأى شىء تؤمن اذن اذا لم تكن الكنيسة وتعاليمها ؟

نيقولاس ايفانوفتش : أومن بالله وقانونه الذى أعطى لنا فى الأناجيل .

الأب جيراشيم : ان الكنيسة تعلم هذا القانون .

نيقولاس ايفانوفتش : لو أنها تفعل ذلك لآمنت بها ، ولكنها مع الأسف الشديد تدعو الى عكس ذلك .

الأب جيراشيم : ان الكنيسة لا يمكنها أن تدعو الى خلاف الأناجيل لأن الله نفسه هو الذى أقام الكنيسة ، وأنت تعرف أنه مكتوب فى الانجيل « انى أعطيك القوة ، وعلى هذه الصخرة سأبنى كنيستى وأبواب الجحيم لن تستطيع أن تقتحمها (1) . »

نيقولاس ايفانوفتش : هذه الآيات لم تذكر فى هذه المناسبة على الاطلاق فضلا عن أنها لا تدل بذاتها على شىء . وحتى لو سلمنا بأن المسيح هو الذى أقام الكنيسة ، فما هو الدليل على ان هذه الكنيسة التى أقامها هى كنيستك أنت ؟

الأب جيراشيم : لأنه قيل « كلما اجتمع اثنان أو ثلاثة باسمى ، فاننى أكون قائما وسطهم » .

نيقولاس ايفانوفتش : وهذه أيضا لم تقل بهذه المناسبة ، وهى لا تدل على شىء .

الأب جيراشيم : كيف يمكن لانسان أن ينكر الكنيسة ، وهى وحدها طريق الخلاص ؟

نيقولاس ايفانوفتش : اننى لم أتنكر للكنيسة الا بعد أن وجدتها تدعم وتظاهر كل ما هو ضد المسيحية .

---

(1) النص العربى لهذه الآية كما ورد فى الكتاب المقدس طبعة بيروت لعام ١٩٥١ هو : « وأنا أقول لك أنت الصفاة وعلى هذه الصفاة سأبنى كنيستى وأبواب الجحيم لن تقوى عليها » .

الأب جراشيم : ان الكنيسة لا يمكن أن تخطىء أبدا ، لأنها هى وحدها التى تملك الحقيقة الكاملة ، والذين يتخلون عنها يضلون ، أما الكنيسة فمنزهة ، ومعصومة من الخطأ .

نيقولاس ايفانوفتش : أو لم أقل لك اننى أرفض هذا المبدأ الذى تقول به ؟ اننى لا أقبله واعترض عليه ، لأنه قد نص فى الانجيل على أنه « سوف تعرفونهم بأعمالهم ، من ثمارهم تعرفونهم » ولقد وجدت الكنيسة تبارك الأقسام المغلظة وتبارك القتل والاعدام .

الأب جراشيم : ان الكنيسة تقر وتقدس السلطات الالهية التى أمر الله بها .

(فى خلال هذه المناقشة يدخل ستيبا ولوبا وليزا وتونيا متسللين فرادى من حين لآخر ثم يجلسون أو يقفون فى صمت منصتين) .

نيقولاس ايفانوفتش : ان الأناجيل لا تقول فقط « لا تقتل » بل تقول «لا تغضب»، ومع ذلك فالكنيسة تبارك الجيش . الأناجيل تقول « لا تحلف أبدا » ولكن الكنيسة تتولى عملية حلف الايمان . الأناجيل تقول ...

الأب جراشيم : عفوا ، عندما قال بيلاطس « أقسم عليك بالله الحى » فقد قبل المسيح قسمه عندما رد عليه قائلا « أنا هو » (١)

نيقولاس ايفانوفتش : يا الهى ! ... ما هذا الذى تقوله ؟ ان ذلك هو السخف بعينه .

الأب جراشيم : وهذا هو السبب الذى يجعل الكنيسة تحظر على الناس أن تتصدى لتفسير الأنجيل ، والا ضلّت وانحرفت عن الطريق السوى .

---

(١) ينسب تولستوى هذا القول لبيلاطس ، مع ان قائله على ما ورد فى الانجيل هو قيافا رئيس الكهنة .

« فقال له رئيس الكهنة أقسم عليك بالله الحى أن تقول لنا هل انت المسيح بن الله (٦٣) فقال له يسوع أنت قلت » انجيل متى ــ الفصل السادس والعشرين .

وفى رأيى أن تولستوى أراد أن يسخر من علم الأب جيراشيم فجعله وهو القس الكبير يخطىء هذا الخطأ فى النقل . (المترجم)

ان الكنيسة كأم رءوم ترعى أبناءها وتعطى كلاً وما يتفق وقدرته على الفهم والادراك .

(يهم نيقولاس بالكلام فيوقفه الأب جيراشيم باشارة) .

لا ، دعنى أتم كلامى . ان الكنيسة لا تحمل أبناءها أحمالا ثقيلة فوق طاقتهم ، ولذلك فهى تكتفى بالزامهم أن يطبقوا الوصايا العشر .

« أحبوا بعضكم . لا تقتل . لا تسرق . لا تزن » .

نيقولاس ايفانوفتش : أجل ، أجل لا تقتلنى أنا ، لا تسرق منى الأموال التى سرقتها ، لقد سرقنا نحن الناس ، سرقنا أراضيهم ثم شرعنا قانونا بمنعهم من سرقتها منا ثانية . والكنيسة تحمى وتبارك هذه الاجراءات كلها .

الأب جراشيم : ان الألحاد والكبرياء الفكرى هما اللذان يتكلمان الآن من خلالك ، وينبغى عليك أن تقهر كبرياءك العقلى .

نيقولاس ايفانوفتش : ليس فيما أقول أى كبرياء . اننى أسألك فى بساطة ووضوح ، ما الذى ينبغى علىّ عمله طبقا لقانون المسيح عندما أبدأ فى الاحساس بثقل الخطيئة التى عشت فيها ، وهى اغتصاب ثمرة كدح الآخرين واسترقاقهم عن طريق ملكيتى للأرض . ما الذى يجب علىّ عمله ؟ . هل أظل أتملك الأرض وأغتنى على حساب كد الآخرين وتجويعهم، مستخدما اياهم فى هذا النوع من العمل .

(يشير الى الخدم الذين كانوا يواصلون حمل الغذاء والنبيذ) .

أم أن الواجب يحتم علىّ أن أعيد الأرض التى سرقها أجدادى الى أصحابها الذين سرقت منهم ؟

الأب جراشيم : يجب عليك أن تتصرف بما يليق بابن ينتمى الى الكنيسة ، ان لك أسرة ولك أطفالا يجب عليك أن تحفظهم وترعاهم وتعلمهم بالطريق الذى يتناسب مع مركزهم الاجتماعى .

نيقولاس ايفانوفتش : لماذا ؟

الأب جراشيم : لأن الله وضعك فى هذا المركز . واذا شئت أن تكون محسنا، فكن محسنا باعطاء جزء من أملاكك وزيارة الفقراء .

نيقولاس ايفانوفتش : فماذا نقول اذن فى قول المسيح للفتى الغنى ، « انه يعسر على الغنى دخول ملكوت السموات »

الأب جيراشيم : لقد قال « اذا كنت تريد أن تكون كاملا »

نيقولاس ايفانوفتش : وأنا أريد أن أكون كاملا ، أولا يقول الانجيل « كونوا كاملين كأبيكم فى السماء »

الأب جيراشيم : ولكننا يجب أن نفهم المناسبة التى قيل فيها هذا القول .

نيقولاس ايفانوفتش : اننى أحاول أن أفهم ، وكل ما قيل فى موعظة الجبل بسيط ومفهوم .

الأب جيراشيم : كبرياء ! ... كبرياء عقلى !

نيقولاس ايفانوفتش : أين هو الكبرياء فيما أقول وقد نص فى الانجيل على أنه ما أخفى عن الحكماء والعقلاء فسوف يكشف للأطفال .

الأب جيراشيم : يكشف للودعاء والمتواضعين ، لا للمتكبرين .

نيقولاس ايفانوفتش : ولكن أينا المتكبر ؟ أنا الذى أعد نفسى فردا كسائر البشر ، فيجب أن أعيش من كد عملى وأكسب قوتى من عرق جبينى وأعيش فقيرا كبقية الفقراء ، أم هؤلاء الذين يتصورون أنفسهم قد انفردوا بالقداسة وتنزهوا عن الأخطاء ، واختصوا بمعرفة الحقيقة التى حجبت عن الآخرين ، ولهم الحق فى أن يفسروا أقوال المسيح على هواهم ؟

الأب جيراشيم : (متأذيا) ، عفوا يا نيقولاس ايفانوفتش ، اننى لم أجىء الى هنا لنتناقش أينا على صواب أكثر من الآخر ولم أجىء لأتلقى موعظة ، ولكنى جئت بناء على طلب الكسندرا ايفانوفا لأتكلم معك فى بعض الأمور والمسائل ، فأما وأنت تعرف جميع الأمور والقضايا بأحسن مما أعرف فمن الخير أن ننهى حديثنا . ولكنى للمرة الأخيرة أتوسل اليك

باسم الرب أن تعود الى صوابك ، فقد ضللت ضلالا شديدا ، وانك لتجر الدمار والخراب على نفسك .

(يقف) .

مارى ايفانوفا : ألا تتناول بعض الطعام .

الأب جيراشيم : لا .... أشكرك .

(يخرج مصحوبا بالكسندرا ايفانوفا) .

مارى ايفانوفا : (للقس الصغير) والآن ، ماذا بعد ذلك ؟

القس : حسنا ! فى رأيى أن نيقولاس ايفانوفتش تكلم بالحق ولم يسق الأب جيراشيم أى حجة لصالحه .

البرنسيس : انه لم يعط الفرصة ليقول ما عنده ، وهو لم يشأ أن يقوم بمناظرة علنية تحت أسماع الجميع ، لقد انسحب تواضعا .

بوريس : لم يكن هذا تواضعا على الاطلاق ، لقد كان كل ما قاله باطلا وكان من الواضح أنه لم يقل شيئا .

البرنسيس : آه ، لقد أصبحت أرى ، أنك بدأت تنحاز فى كل شىء لجانب نيقولاس ايفانوفتش نتيجة لطبيعتك القلقة ، مع أنك اذا كنت تعتقد فى هذه الآراء فيجب عليك أن تعدل عن فكرة الزواج .

بوريس : ان ما أقوله هو الحق . والحق هو الحق ولست بمستطيع أن أقول غير ذلك .

البرنسيس : على أية حال ، فأنت من دون الناس جميعا لا يصح لك أن تتكلم هذا .

بوريس : ولماذا ؟

البرنسيس : لأنك فقير وليس لديك شىء لتتخلى عنه . ومع ذلك فهذه الأمور كلها ليست من اختصاصنا .

(تخرج ويتبعها الجميع ما عدا نيقولاس ايفانوفتش ومارى ايفانوفا) .

نيقولاس ايفانوفتش : (يجلس مفكرا ، ثم يبتسم على أفكاره ويخاطب زوجته) . ماری ! لم كل هذا ؟! لماذا دعوت هذا القس الضال ؟ لماذا يتدخل كل النسوة الثرثارات وهـذا القسيس فى أخص شئوننا العـائلية ؟ أليس باستطاعتنا نحن أن ننظم أمورنا ؟

ماری ايفانوفا : وماذا بوسعى أن أفعل وأنت تريد أن تدع أطفالنـا بدون فلس (قرش) واحد ! ان هذا شيء لا أستطيع أن أقبله بأى حال من الأحوال . انك تعرف أننى لست امرأة جشعة ولست أريد شيئا لنفسى .

نيقولاس ايفانوفتش : اعرف ، أعرف بل وأومن بذلك . ولكن من سوء الحظ أنك لا تريدين الاعتماد على الحق ، أنا متأكد أنك تريدين الحق ، ولكنـك غير قادرة على حزم أمرك على اتباعه . انك لا تريدين الاعتماد على الحق ولا عليّ ، وبدلا من ذلك تعتمدين على هذه الجماعة ، على البرنسيس وبقية الآخرين .

ماری ايفانوفا : اننى أومن بك ، وقد فعلت ذلك دائما ، ولكن عندما تريد أن تجعل أولادنا يتسولون ...

نيقولاس ايفانوفتش : وهذا هو الدليل على أنك لا تريدين الاعتماد عليّ . هل تتصورين أننى لم أكافح هذه الأفكار ولم أمتلأ خوفا ؟ ولكنى بعد ذلك أيقنت أن هذا الطريق ليس فقط ممكنا بل ولازما ، وانه الشيء الوحيد الضرورى بل والنافع لأولادنا أنفسهم .

لطالما قلت لى انه لو لم يكن هنـاك الأولاد لتبعتنى ، ولكنى أقول لك انه لو لم يكن هناك أولادنا ، لكان من المستطاع أن نحيا كما نفعل الآن ، لأننا فى هذه الحال ، لا نؤذى سوى أنفسنا فقط ، أما الآن فنحن نؤذى أولادنا معنا .

ماری ايفانوفا : ولكن ماذا أفعل اذا كنت لا أستطيع أن أفهم .

نيقولاس ايفانوفتش : وأنا ، ماذا أستطيع أن أفعل ؟ ألست أعرف السبب الذى

جئتم من أجله بهذا الرجـل التعس الذى يرتدى ثوب الكاهن ويعلق الصليب على صدره ؟ ألست أدرك لمـاذا أحضرت الكسندرا ايفانوفا مسجل العقود ؟ انك تريدين منى أن أتنازل لك عن الضيعـة ، ولكنى لا أستطيع ذلك .

أنت تعرفين أننى أحببتك خلال العشرين سنة الماضية التى عشناها سويا . اننى أحبك وأريد لك كل خير ، وهذا هو ما يجعلنى لا أستطيع أن أوقع على عقد التنازل الذى تريدينه . اذا كان يجب علىّ أن أتنازل ، فانما أفعل ذلك لاعادتها لهؤلاء الذين أخذت منهم ، الى الفلاحين .

لن أدع الأمور تسـير على هـذا الأسلوب ، ولذلك فيجب أن أعطيها لهم . وانى سعيد أن مسجل العقود جاء الى هنا وسوف أفعل ذلك .

مارى ايفانوفا : كلا، هذا فظيع ، لماذا كل هذه القسوة علىّ حتى لو تصورت أن اعطاء الأرض لى خطيئة ، فاعطها لى مع ذلك .

(تجهش بالبكاء) .

نيقولاس ايفانوفتش : انك لا تعرفين ماذا تطلبين ! اذا أعطيتك الأرض ، فلن أستطيع مواصلة الحياة معك ، سوف أمضى من هنا فلن يكون باستطاعتى العيش فى ظل هذه الظروف ، كيف أقوى على رؤية الدم الحى وهو يمتص من أجساد الفلاحين ، ويزج بهم فى السجون باسمك بدلا من اسمى ؟ ! فعليك أن تختارى ، أنا أو الأرض .

مارى ايفانوفا : ما أشد قسوتك ، أهذه هى مسيحيتك ؟ أليست هذه فظاعة ؟ على أية حال لا يمكننى أن أعيش كما تريدنى أن أعيش ، اننى لا أستطيع أن أسرق أولادى وأعطى كـل شىء للآخرين ، وهـذا هو ما تريد أن تهجرنى من أجله .

وهو كذلك ... افعل ما تريد ، اننى أعرف أنك لم تعـد تحبنى ، بل وأعرف سبب ذلك أيضا .

نيقولاس ايفانوفتش : حسن اذن ، فسوف أوقـع ، ولكن أعلمى يا مارى أنك تطلبين منى المستحيل .

(يذهب الى المائدة ويوقع)

لقد أردت ذلك ، ولكنى لن أستطيع المضى فى الحيـاة على هـذا الأسلوب [1] .

ســتار

---

(١) ان هذا التناقض بين ما يقوله نيقولاس هنا ، وما قاله فى صـفحة ٨٦ (خذى املاكى) وما قاله فى ص ٩٦ وهو يقترح الابقاء على جزء من الأرض ، وما فعله بالفعل فى النهاية ، هو التصوير الدقيق والأمين معا لحياة تولستوى مع زوجته ، وتردده فى تصرفاته وعدم استطاعته ان يحزم أمره .

الفصل الثالث

المنظر الأول

(المنظر أحد البيوت فى موسكو ـ حجرة كبيرة يوجد بها طاولة نجار ـ مائدة وعليها أوراق ـ خزانة كتب (دولاب) . مرآة وصور على الحائط ألواح خشبية مستندة اليها بميل) .
(عند رفع الستار يرى نيقولاس ايفانوفتش ونجـــار وهما يرتديان ـ مريلة العمال ـ ويشتغلان على الطاولة منهمكين فى أحكام التصميم) .

نيقولاس ايفانوفتش : (آخذا لوحا من المنجلة المثبتة فى الطاولة) . هل هذا مضبوط ؟

النجـــار : (يضع المسحاة (الفارة) على الطاولة) ليس تماما ، يجب أن تمسحها فى جسارة ... هكذا ...

نيقولاس ايفانوفتش : انه من السهل عليك أن تقول عليك أن تمسحها فى جسارة ، ولكنى لا أعرف كيف أتوصل لذلك .

النجـــار : ولكن ما الذى يحملك على أن تزعج سموك لتحـاول أن تكون نجارا ، يوجد عدد كثير من النجارين هذه الأيام ، حتى أصبحنا نكسب قوتنا بشق النفس .

نيقولاس ايفانوفتش : اننى خجل من أن أحيا حياة عاطلة .

النجـــار : ولكن ذلك هو ما يقضى به مركزك ، لقد أعطاك الله أملاكا .

نيقولاس ايفانوفتش : وهذه هى القضية ، اننى لا أعتقد أن الله أعطاها لى ، وانما الحقيقة هى أن بعضنا أخذها ، أخذها من اخواننا فى البشرية .

النجـــــاد : (يتراجع مأخوذا) ، هذا صحيح ، ومع ذلك فلست فى حاجة لأن تشتغل كما تفعل الآن .

نيقولاس ايفانوفتش : اننى مدرك تماما ، أن ما أقوله لك يبدو غريبا ، كيف وأنا أعيش فى هذا البيت وسط مظـاهر الترف والبذخ ، أحاول أن أكسب بعض النقود بعرق جبينى وكد يدى .

النجـــــاد : (ضاحكا) ، كلا ... كلا ... كل انسان يعرف أن الأسياد يرغبون دائما فى حذق كل شىء .

(ناظرا الى لوح الخشب) .

والآن أعد عليها ثانية مستعملا مسحاة (فارة) التنعيم .

نيقولاس ايفانوفتش : سوف تضحـــك منى ، ولن تصدقنى ، ومع ذلك فيجب أن أقول لك : فى بادىء الأمر لم أكن أخجل من أن أحيا بهذا الأسلوب من حياة الترف والنعيم ، أما الآن ، بعـــد أن أصبحت أومن بقانون المسيح الذى يقول أننا جميعا أخوة ، فاننى شديد الخجـل من أن أحيا هكذا .

النجـــــاد : اذا كنت خجلا ، فانزل عن أملاكك للفلاحين ...

نيقولاس ايفانوفتش : لقد حاولت ذلك ولكننى فشلت فأعطيتها لزوجتى .

النجـــــاد : ولكن فى نهاية الأمر ، من المستحيل عليك أن تفعل ذلك . فأنت معتاد على وسائل الراحة والرفاهية .

(صوت من الخارج) .

(أبى ، هل أستطيع أن أدخل) .

نيقولاس ايفانوفتش : أجل ، باستطاعتك دائما أن تدخلى .

(تدخل لوبا) .

لـــوبا : صباح الخير يا يعقوب .

النجـــــاد : صباح الخير يا آنستى !

لــــوبا : لقد ذهب بوريس الى فرقته ، وانى فى خوف مما قد يقوله أو يفعله هناك ، فماذا ترى ؟

نيقولاس ايفانوفتش : ماذا أرى ؟ أرى انه سوف يفعل الشيء الطبيعي بالنسبة له .

لــــوبا : ان هذا مخيف ، فهو باعتباره خريج الجامعـــة ، لن تكون خدمته العسكرية الا قصيرة جدا ، ومع ذلك فقد يفعل شيئا يحطم به كل مستقبله .

نيقولاس ايفانوفتش : لقد أحسن صنعا فى عدم مجيئــه الىّ ليرانى انه يعرف أن ليس باستطاعتى أن أقول له شيئا لا يعرفه بنفسه ، لقد أخبرنى أنه قدم استقالته من الجيش لأنه يرى أن الخدمة العسكرية ليست فقط لونا من ألوان انعدام الأخلاق ، والقانون والقسوة ، ووظيفة وحشية غايتهــا القتل ، ولكنه يرى فوق ذلك كله أن ليس هناك ما ينحط بالانسان أكثر من أن يرى نفسه مضطرا بصفة مباشرة ومستمرة للخضوع خضوعا أعمى لأى انسان شاءت الصدفة أن يكون أعلى منه رتبة وأن يكون رئيسا له. انه يعرف ذلك كله .

لــــوبا : وهذا هو ما يجعلنى خائفة عليه . انه يعرف ذلك وربما أقدم على بعض الأعمال .

نيقولاس ايفانوفتش : سوف يقرر له ضميره أو بالأحرى الله الذى يعيش معــــه ما ينبغى عليه عمله . ولو أنه جاء الىّ لقدمت له نصيحة واحدة وهى ألا يعمل شيئا يكون فيه مسيرا بعقله فقط ، فليس هناك ما هو أسوأ من ذلك ، وانما يجب عليه أن يعمل عندما يكون كل كيانه يطالبه بالعمل ، فانا الآن مثلا أريد أن أعيش وأتصرف طبقا لوصايا المسيح ، أن أتخلى عن الأب والزوجة والبنت والولد ، وأن أتبعه ، أن أترك البيت والأسرة ، وأتبعه ، فكيف انتهت بى هذه الرغبة ؟ لقد انتهت بأن عدت اليكم لأعيش معكم فى المدينة وسط البذخ والترف . لقد حدث ذلك لأننى كنت أحاول

أن أفعل شيئا فوق طاقتى ، فوصلت الى هذا الموقف المخـزى الذى أنا فيه ، والذى لا معنى له . اننى أحاول أن أعيش فى بساطة ، وأن أكسب قوتى من عمل يدى ، ولكن وسط هذه البيئة ، وسط هذا الحشد من الخدم والحشم ، ولذلك فان الأمر يبدو متصنعا ومتكلفا ، اننى أرى أن الجميع حتى يعقوب نفسه باتوا يضحكون منى .

النجـــاد : ولماذا أضحك منك ؟ انك تعطينى أجرى ، وتقدم لى الشاى ، اننى شاكر لك .

لـــوبا : انى أسائل نفسى ، اذا كان من الخير أن أذهب اليه ؟!

نيقولاس ايفانوفتش : يا عزيزتى ، يا حبيبتى ، انى أدرك أن الأمر صعب عليـك جدا ، ولذلك فانت فى هلع ، مع أنه ينبغى عليك ألا تكونى كذلك .

انك تعرفين أننى رجل قد خبر الحياة ، وهذا ما يجعلنى أقول لك انه لا يمكن أن يقع شر من أى نوع كان . ان ما قد يبدو فى الظاهر شرا ، قد يكون هو مبعث المسرة فى قلوبنا .

وكل الذى عليك أن تدركيه فى الوقت الحاضر ، ان الانسان الذى آثر أن يسير فى هذا الطريق ، فان عليه أن يختار لنفســه بين طريق الله وطريق الشيطان ، وقد يحدث فى بعض الأحيان أن يتساوى جانب الله مع جانب الشيطان ، فى كفة الميزان ، فيظل يتأرجح بينهما ، وفى هذه الحالة فقط يقرر الانسان مصيره ، وفى هذه اللحظة الخطـيرة التى يتعين على الانسان أن يتخذ قراره الأعظم ، فانه يجب أن يترك وشـأنه ، لأن كل تداخل خارجى عنه قد يؤدى الى نتائج خطـيرة ومؤلمة . ان الموقف فى هذه الحالة يشبه الانسان عندما يبذل مجهودا عنيفا ليسحب ثقلا فوق حافة معبر ضيق ، فان أى لمسة بسيطة له وهو فى هذه الحالة قد تؤدى الى كسر ظهره .

لـــوبا : ولماذا يجب عليه أن يتألم هكذا ... لماذا ؟!

نيقولاس ايفانوفتش : ان سؤالك هذا ، كما لو أن أمّا سألت نفسها وهى تلد ، لماذا تتألم . لا يمكن أن يتم وضع بلا ألم . والأمر كذلك فى الحياة الروحية .

هناك شىء واحد أستطيع أن أقوله لك ، وهو أن بوريس مسيحى صادق ، وبالتالى فهو حر ، واذا لم يكن باستطاعتك أن تكونى مثله ، أو أن تؤمنى بالله مثل ايمانه ، فلا أقل من أن تؤمنى بالله من خلاله هو .

مارى ايفانوفا : (من وراء الباب) ، هل أستطيع الدخول ؟

نيقولاس ايفانوفتش : باستطاعتك الدخول دائما . ما هذا الاستقبال الذى يجرى هنا اليوم !

مارى ايفانوفا : (تدخل) ، لقد جاء قسيسنا فاسيلى نيكونوروفتش ، انه ذاهب الى الأسقف بعد أن قدم استقالته من وظيفته !

نيقولاس ايفانوفتش : مستحيل !

مارى ايفانوفا : انه هنا ! لوبا ، اذهبى وناده . لقد طلب أن يراك .

(تخرج لوبا) .

ولدى سبب آخر لمجيئى الى هنا . أريد أن أحدثك عن ابننا فانيا ، لقد أصبح يتصرف بطريقة ممقوتة ، ولم يعد يؤدى واجباته المدرسية ، بحيث لا يمكن أن ينجح هذا العام ، وكلما حاولت مخاطبته ، رد علىّ بفظاظة وخشونة .

نيقولاس ايفانوفتش : مارى ، انك تدركين أننى لا أعطف بالمرة على نوع الحياة التى تحيونها هنا ، ولا بالتربية والتعليم الذى تقدمونه للأطفال ، والأمر الشديد الوطأة على نفسى هو ما اذا كان من حقى أن أرى أولادى يهلكون أمام عينى ثم ...

مارى ايفانوفا : فى هذه الحالة ينبغى عليك أن تقترح حلا آخر ، حلا واضحا محدودا ، فما الذى تقترحه ؟ .

نيقولاس ايفانوفتش : لست أستطيع أن اقترح شيئا ، ولكن من الواضح أن نقطة الابتداء هو أن تتخلص من هذا الترف المخزى .

مارى ايفانوفا : حتى يصبح أولادى فلاحين ؟! هذا ما لا أستطيع أن أوافق عليه .

نيقولاس ايفانوفتش : اذن ، لا تحاولى أن تستشيرينى ، ان ما تشكين منه ويسبب لك الحزن ، هو النتيجة الطبيعية لهذه الحياة التى تحيينها ، ومن غير المستطاع تفاديها .

(يدخل القس ولوبا — يقبل القس ونيقولاس ايفانوفتش كل منهما الآخر) .

نيقولاس ايفانوفتش : أمعقول أن تكون قد قررت التخلى عن كل شىء ؟

القس : لم يعد باستطاعتى أن أتحمل أكثر من ذلك .

نيقولاس ايفانوفتش : ولكنى ما كنت أتصور أن تتطور معك الأمور بهذه السرعة .

القس : فى الحق ان الأمر أصبح بالنسبة لى مستحيلا ، ففى عملنا لا يستطيع الانسان أن يكون عديم الاكتراث .
ان علىّ أن أستمع الى اعترافات المؤمنين ، وعلىّ أن أقوم بطقوس السر المقدس وعندما يفقد الانسان ايمانه بذلك كله ويتصوره غير حق ...

نيقولاس ايفانوفتش : حسنا ، ولكن ماذا أنت فاعل الآن ؟

القس : الآن ، أنا ذاهب الى الأسقف ليستجوبنى ، وأنى أوجس خيفة أن ينفينى الى دير سولوفتش فى سيبريا . وقد فكرت حينا ما أن تساعدنى على الهرب خارج الحدود ، ولكنى عدلت عن هذا العزم لما ينطوى عليه من جبن ، وكل ما يشغل بالى الآن ، هو زوجتى .

نيقولاس ايفانوفتش : أين هى ؟

القس : لقد ذهبت الى بيت والدها ، لقد جاءت حماتى فأخذتها ، وأخذت ابننا معها ، وقد آلمنى ذلك كثيرا جدا ، وكنت أحب لو ....
(يتوقف عن الكلام ليغالب دموعه) .

نيقولاس ايفانوفتش : حسنا ، فليساعدك الله ، هل ستقيم معنا ؟

(تدخل البرنسيس الى الحجرة مسرعة) .

البرنسيس : ها قد وقعت الواقعة ، لقـــد رفض بكل اصرار أن يؤدى الخدمة العسكرية ، فقبض عليه ، لقد كنت هنـــاك ، ولكن لم يسمح لى بمقابلته . نيقولاس ايفانوفتش ، ينبغى عليك أن تذهب .

لــــوبا : رفض ؟ كيف عرفت ذلك ؟

البرنسيس : كنت هناك بنفسى. لقد أخبرنى فاسيلى بكل شىء بالتفصيل. لقد دخـــل عليهم بوريس وقال لهم أنه لن يقبـــل أن يؤدى الخـــدمة العسكرية ، ولن يقسم أى يمين للولاء ، وبالجملة فقـــد قال كل شىء علّمه له نيقولاس ايفانوفتش .

نيقولاس ايفانوفتش : برنسيس ! هل يمكن أن تعلم هذه الأشياء ؟

البرنسيس : لا أعرف ولكن ذلك ليس من المسيحية فى شىء ما هو رأيك يا أبى ؟

القس : لم أعد أبا بعد الآن .

البرنسيس : ومع ذلك .... آه ، نعم ، لقـــد فهمت ، أنك توافقهم فيما يذهبون اليه .

(مخاطبة نيقولاس ايفانوفتش) .

ان كل شىء على ما يرام بالنسبة لك ، ولكنى لا يمكن أن أسمح للأمور أن تجرى هكذا . أى مسيحية ممقوتة تلك التى تجعـــل الناس يتألمون هكذا ثم يهلكون ! اننى أمقت مسيحيتكم المزعومة هذه .

ان هذه المبادىء حسنة بالنسبة لك ، لأنك تعرف أن أحدا لن يمسّك بسوء ، ولكن أنا ، أنا التى ليس لها الا ولد واحد ، وقد حطمته الآن ودمرت مستقبله .

نيقولاس ايفانوفتش : اهدئى برلسيس ، أرجوك .

البرنسيس : أجل ، لقد حطمتــه ، حطمت ابنى ، وما دمت أنت الذى حطمته فيجب عليك أنت نفسك أن تنقذه . هيا اذهب واقنعه أن يعدل عن كل هذه السخافات . ان ما تقول به من مبادىء وأفكار قد لا يضر أناسا أغنياء ، أما بالنسبة لنا ، فلا .

لـــوبا : (تجهش بالبكاء) ، أبى ... أبى ماذا نستطيع أن نفعل ؟

نيقولاس ايفانوفتش : سوف أذهب اليه ، فربما استطعت أن أكون نافعا .

(يخلع المريلة) .

البرنسيس : (تساعده فى ارتداء معطفه) ، انهم لم يسمحوا لى بالدخول ، أما الآن فسوف نذهب سويا ، وسأعرف كيف أشق طريقى .

(ســـتار)

المنظر الثـــانى

(مكتب حكومى) ـ كاتب يجلس على مائدة ، وحارس يقطع المكان ذهابا وجيئة . يدخل جنرال مع أركان حربه . يقفـز الكاتب ، والحارس يؤدى سلام سلاح) .

الجنرال : أين الكولونيل ؟

الكاتب : لقد ذهب ليرى هذا المجند (النفر) الجديد يا صـــاحب السعادة .

الجنرال : وما الذى تقوم بنسخه ؟ أهى أقوال هذا المجند ؟

الكاتب : أجل يا صاحب السعادة .

الجنرال : اعطنى اياها .

(يقدم الكاتب الأوراق للجنرال الذى يعطيها بدوره لأركان حـربه) .

الجنرال اقرأ من فضلك .

أركان الحرب : (قارئا) هذه هى اجابتى على الأسئلة التى وجهت الىّ :

١ — لماذا لا أقسم اليمين ؟ ٢ — لماذا أرفض تلبية أوامر الحكومة ؟

٣ — ما الذى دفعنى لاستعمال ألفاظ مهينة لا ضد الجيش فقط ، بل وضد السلطات العليا نفسها ؟

وجوابى على السؤال الأول : لا أستطيع أن أقسم اليمين لأننى أومن بتعاليم المسيح التى تحرم فى صراحة وبطريقة حاسمة حلف الايمان . وقد نص على هذا التحريم فى أنجيـل متى الفصـل الخامس الآيات من

٣٣—٣٧[1] وفى رسالة جيمس القديس الفصل الخامس الآية ١٢ .

الجنرال : طبعا لا بد له من الجدل مفسرا الأنجيل على هواه .

أركان الحرب : (مواصلا القراءة) ان الأنجيل يقول لا تحلفوا البتة ، ولكن ليكن كلامكم نعم نعم و لا لا وما زاد فهو من الشرير . ورسالة القديس جيمس تقول ، وفوق كل شيء أيها الأخوة لا تقسموا بالسماء ولا بالأرض ولا بأى ايمان أخرى بل ليكن كلامكم نعم نعم و لا لا حتى لا تسقطوا فى الخطيئة .

وفضلا عن الانجيل الذى يحرم علينا بهذا الوضوح أن نقسم فلو لم يتضمن هذا التحريم ، لما طاوعتنى نفسى على القسم باطاعة أوامر البشر لأننى كمسيحى مؤمن ، لا أستطيع الا أن أطيع أوامر الله ، وهى لا تنطبق فى أكثر الأحيان على ارادة البشر وأوامرهم .

أركان الحرب : انه يجادل ، لو ترك الأمر لى ، لما حدث شيء من ذلك على الاطلاق .

أركان الحرب : (مواصلا القراءة) اننى أرفض أن ألبى رغبات البشر الذين يطلقون على أنفسهم اسم الحكومة لأن ....

الجنرال : هذه وقاحة !

أركان الحرب : لأن مطالبهم اجرامية وشريرة . انهم يطلبون منى أن أدخل الجيش ، وأتعلم وأعد نفسى لارتكاب جرائم القتل ، على الرغم من أن ذلك حرام ومحظور سواء فى العهد القديم أو العهد الجديد ، وفوق ذلك كله ، فان ضميرى يأباه .

---

(١) المترجم : هذا هو نص الآيات المشار اليها :

« لقد سمعتم أيضا أنه قيل للأولين لاتحنث بل أوف للرب بأقسامك . (٣٤) أما أنا فأقول لكم لا تحلفوا البتة ، لا بالسماء ، فانها عرش الله (٣٥) ولا بالارض ، لأنها مواطىء قدميه ، ولا باورشليم ، لأنها مدينة الملك الأعظم (٣٦) ولا تحلف برأسك لأنك لا تقدر أن تجعل شعيرة منها بيضاء أو سوداء (٣٧) ولكن ليكن كلامكم نعم نعم و لا لا وما زاد على ذلك فهو من الشرير » .

أما بالنسبة للسؤال الثالث .

(يدخـــل الكولونيل وراءه الكاتب ـ يصـــافح الجنرال الكولونيل) .

الكولونيل : هل تطالعون المحضر ؟

الجنرال : أجل ، انها لغة وقحة لا يمكن التسامح فيها أبدا ! استمر .

أركان الحرب : بالنسبة للسؤال الثالث ، ما الذى حفزنى لاستعمال ألفـاظ مهينة أمام هيئة المجلس . فجوابى على ذلك أنه قد حفزنى على فعل ذلك أن أكون خادما مخلصا لله ربى ، بأن أكشف عن الغش والخـداع الذى يرتكب باسمه . وانى أرجو أن أظل محتفظا بهذه الرغبة حتى أموت ، وعندئذ ...

الجنرال : كفى ... هذا يكفى . ان الانسان لا يستطيع أن يمضى طويلا فى سماع هذا الكلام الفارغ .

والمهم الآن ، هو أن هذا الطراز من المشـاكل يجب أن يقطـع دابرها ، وتستأصل شأفتها ولا بد من اتخاذ الاجراءات الكفيلة بمنع الناس من أن تقع فريسة التضليل .

(للكولونيل) هل تكلمت معه ؟

الكولونيل : هذا ما كنت أفعله طول الوقت . لقد حاولت أن أخجله من مسلكه وأن أقنعه بأن تصرفه لا نتيجة له الا الاساءة الى نفســه ، ولن يكسب من وراء ذلك شيئا . ثم حدثته عن أسرته وأقاربه وما يمكن أن يسىء بموقفه هذا اليهم . فتأثر لذلك أشد التأثر . ولكنه ظل مع ذلك متمسكا بآرائه وأفكاره .

الجنرال : انه من المؤسف أنك تكلمت معه أكثر مما ينبغى . نحن هنا فى الجيش ، لا لكى نناقش ونسوق الحجج ، نحن هنا لنعمـل بحزم ، احضره الى هنا فورا !

(يخرج أركان الحرب مع الكاتب) .

الجنرال : (يجلس) كلا ، كولونيل ، ليست هذه هى الطريقة التى يعالج بها أشخاص من هذا الطراز ، لا بد من أن يتبع معهم أسلوب آخر، يجب اتخاذ اجراءات حاسمة لبتر العضو الأشل . ان شاة واحدة مريضة، من شأنها أن تعدى كل القطيع ، ولذلك ففى أمثال هذه الحالات ، لا ينبغى أن يكون الانسان مترددا . ان كونه أميرا (برنسا) أو أن له أما وخطيبة ليس من اختصاصنا ، انه بالنسبة لنا مجرد مجند ، نفر عادى ويجب أن تنفذ مشيئة القيصر .

الكولونيل : لقد تصورت أنه قد يكون من الأسهل أن تقنعه عن طريق الاغراء والاقناع .

الجنرال : أبدا ، أبدا ، ولكن بالحزم ، وبالحزم فقط ! فطالما عالجت أشخاصا من هذا الطراز ، يجب أن يحمل على الشعور بأنه نكره : انه لا شىء ، مجرد ذرة من التراب تحت عجلات عربة ضخمة لا سبيل لايقافها .

الكولونيل : حسنا ، فلنجرب .

الجنرال : (متضايقا) لا حاجة بنا الى التجربة ، اننى لا أريد أن أجرب ، لقد خدمت القيصر أربعا وأربعين عاما ، لقد أعطيت وأعطى الجيش كل حياتى ، والآن يريد هذا المخلوق أن يعلمنى ويلقى علىّ دروسا فى الدين واللاهوت . فليحتفظ بأقواله وآرائه للقسيس وليس لى. ان عليه أن يختار اما أن يكون جنديا واما أن يكون سجينا وهذا هو الموضوع كله .

(يدخل بوريس محروسا بجنديين ومن ورائه الضابط أركان الحرب والكاتب) .

الجنرال : (مشيرا بأصبعه) ، ضعوه هناك .

بوريس : أنا لست شيئا يوضع ، سوف أظل واقفا أو أجلس كما أشاء ، لأننى لا أعترف بسلطتك .

الجنرال : (يصيح فى غضب) اصمت ! مـن أنت حتى لا تعـترف بالسلطة ؟ سوف أجعلك تعترف بها .

بوريس : (آخذا أحد المقاعد وجالسا عليها) من الخطـأ أن تصرخ هكذا .

الجنرال : (صائحا) ارفعوه واجعلوه يقف .

(تحمله العسـاكر على الوقوف) .

بوريس : هـذا شيء تستطيع أن تفعله ، بل تستطيـع أن تقتلنى ، ولكنك لا تستطيع أبدا أن تحملنى على الخضوع ...

الجنرال : اسكت ، قلت لك ، واستمع لما أريد أن أقوله .

بوريس : أنا شديد الزهد فى سماع ما تريد أن تقوله .

الجنرال : انه مجنون ، يجب أن يؤخذ الى المستشفى للكشف على قواه العقلية . هذا هو الشيء الوحيد الذى يجب عمله .

الكولونيل : الأمر الذى صدر لنا هو أن نبعث به الى البوليس ليحقق معه

الجنرال : وهو كذلك . ارسلوه الى البوليس ، ولكن يجب أولا أن تلبسوه البزه (البدلة) العسكرية .

الكولونيل : انه يقاوم .

الجنرال : بالقوة ، رغم أنفه ، اربطوه (لبوريس) ، أرجوك أن تسمع ما أود قوله لك ، أنا لا يهمنى ماذا يحل بك ولكنى أريد أن أنصحـك من أجل مصلحتك الشخصية . يجب عليك أن تراجع نفسك ، سـوف يلقى بك فى احدى القلاع لتتعفن فيها دون أن تفيد نفسك ، أو يستفيد من ذلك أى انسان آخر ، فمن الخير أن تعدل عن هذه الخطة . حسن ، لقد حمى غضبك قليلا ، وأنا بدورى قد غضبت فلننس ذلك

(يربت على كتف بوريس) . هيا ، هيا اذهب وأد اليمين ودعك من هذه السخافات . (لأركان الحرب) هل القسيس هنا ؟ (لبوريس) حسن ؟ (بوريس يظل صامتا) .

لماذا لا تجيب ؟ الحق انه من الأفضل أن تفعل ما أقوله لك انك لن تستطيع أن تحطم عصا من الزان بسوط من الجلد ان باستطاعتك أن تحتفظ بآرائك لنفسك كما تشاء ، ولكن عليك أولا أن تقوم بعملك فى الجيش ، ولن نستخدم معك القوة ، هه ، هل اتفقنا ؟ ماذا تقول ؟

بوريس : ليس عندى ما أضيفه على ما قلت ، لقد قلت كل ما عندى .

الجنرال : لقد كنت تقول ان هناك آيات من الأنجيل تقول كذا ... وكيت ... وهو كذلك ان القسيس أعرف بهذه الأشياء منا ، تحدث معه وابحث معه الموضوع ثم أعد دراسة الموقف على ضوء ما سوف تسمعه منه ، وبهذا يحل الموقف بصورة أحسن . والآن وداعا ، وأفضل أن أقول لك الى الملتقى ، عندما أستطيع أن أهنئك لحصولك على شرف خدمة صاحب الجلالة القيصر . ارسلوا القس الى هنا .

(يخرج مصحوبا بالكولونيل وأركان الحرب) .

بوريس : (للكاتب وعساكر الحرس)
هل رأيتم كيف يخدعونكم ؟ انهم يعرفون أنهم يخدعونكم ، فاياكم والخضوع لهم ، اتركوا بنادقكم واهربوا ، احملوهم على أن يضعوكم فى فرق التأديب ، بل ويضربوكم بالسياط ، فان ذلك لن يكون أكثر شرا أو أسوأ من خدمة هؤلاء الغشاشين .

الكاتب : ولكن كيف تستطيع الأمة أن تمضى فى الحياة بدون جيش ؟ ان هذا مستحيل .

بوريس : ليس من واجبنا أن نفصل فى هذه القضية ولكن واجبنا الأول هو أن نصدع بأوامر الله ، وأن نبادر بتنفيذ مشيئته .

الجنـــدى : ولكن ما قولك فى حديثهم عن « الجيش المسيحى »

بوريس : لا يوجد فى الانجيل أى أثر لهـــذا الاسم المزعوم ، انه من اختراع هؤلاء المضللين .

(يدخل ضابط بوليس ومعه كاتب) .

ضابط البوليس : هل يوجد هنا تحت الحفظ هذا المجنـــد الذى يدعى الأمير (البرنس) شيرميشانوف ؟

الكاتب : أجل يا سيدى ، هذا هو .

ضابط البوليس : تعال هنا من فضلك . هل أنت البرنس بوريس سيمونوفتش شيرميشانوف الذى يرفض حلف يمين الولاء ؟

بوريس : أنا هو .

ضابط البوليس : (يجلس على كرسى ويشير الى كرسى آخر فى مقابله) . هل لك فى أن تجلس من فضلك .

بوريس : أظن أنه لا جدوى من مناقشتنا سويا .

ضابط البوليس : لا أظن ذلك . على أية حال لن تكون عديمـــة الجـــدوى بالنسبة لك . ان الأمر على الصورة الآتية :

لقد قيل لى انك ترفض أداء الخدمة العسكرية وحلف اليمين ، وعلى ذلك فقد بدأوا يشكون فى انتمائك الى منظمة ثورية وهذا هو ما ينبغى علىّ أن أحققه الآن ، فاذا كنت عضوا فى منظمة ثورية فان واجبنا يحتم علينا أخذك من الجيش والزج بك فى أحد السجون أو نفيك تبعا لخطورة الدور الذى قمت أو تقوم به فى الثورة . أما اذا لم يكن ذلك صحيحا فسوف ندعك بين يدى السلطات العسكرية لتتصرف فيك كما ترى .

ولعلك رأيت أننى خاطبتك بملأ الصراحة ، ومن حقى أن أطمع فى أن تعاملنى بنفس الأسلوب .

بوريس : ولكنى أولا وقبل كل شيء لا أستطيع أن أثق بأشخاص يرتدون هذا الزى الذى ترتديه .

(يشير الى بدلة الضابط العسكرية) .

وثانيا ، لأنك تشغل وظيفة لا أستطيع أن أحترمها ، بل أحمل لها فى نفسى أقصى ما تتصور من النفور والاشمئزاز ، ومع ذلك ، فلن أرفض المجاوبة على أسئلتك . ماذا تريد أن تعرف ؟

ضابط البوليس : قل لى أولا اسمك ، ولقبك ، ودينك .

بوريس : أنت تعرف الاجابة على هذه الأسئلة . ولذلك فلن أجيب عليها باستثناء سؤال واحد اعتبره هاما بالنسبة لى ، فسوف أرد عليه وهو الخاص بدينى . أنا لست ممن يطلقون عليه اسم مسيحى أرثوذكسى .

ضابط البوليس : ما هو دينك اذن ؟

بوريس : أنا لست ممن يضعون لافتة للاعلان عن دينهم .

ضابط البوليس : مع ذلك ...

بوريس : حسن ... حسن ... الدين المسيحى كما هو منصوص عليه فى موعظة الجبل (١) .

ضابط البوليس : (للكاتب) أكتب هذا . (يكتب الكاتب) (لبوريس) ومع ذلك فلا بد أنك تعتبر نفسك تنتمى الى جنسية معينة والى رتبة أو وظيفة .

بوريس : كلا ، أنا لا أنتمى لأى شيء . اننى أعتبر نفسى انسانا وخادما لله .

---

(١) المترجم : راجع الاصحاح الخامس والسادس والسابع من انجيل متى .

ضابط البوليس : ولماذا لا تعتبر نفسك عضوا فى الامبراطورية الروسية ؟

بوريس : لأننى لا أعترف بأى امبراطورية .

ضابط البوليس : ما الذى تعنيه بقولك « لا تعترف » هـل تريد أن تقلب النظـام ؟

بوريس : طبعا أنا أريد ذلك وأعمل فى هذا السبيل .

ضابط البوليس : (للكاتب) أكتب هذه العبارة بكل دقة .
(لبوريس) وكيف تعمل فى سبيل ذلك ؟

بوريس : باظهار الغش والأكاذيب ونشر الحقيقة . عندما دخلت الى هنا كنت أقول لهذين الجنديين ألا يصدقوا الأباطيل التى أوقعوهم فيها .

ضابط البوليس : ولكن الى جوار طرق نشر الحقيقة ومحاولة الاقناع هل تحبذ أى طرق أخرى ؟

بوريس : كلا ، بل اننى لست فقط لا أحبذ ، بل أعتبر أن استعمال كل عنف هو خطيئـة كبرى ، ولست أعترض على العنف فحسب ، بل ان مجرد الاستخفاء والعمل فى السر واستعمال الدهاء والتآمر ، كل ذلك هو خطيئة فى اعتقادى .

ضابط البوليس : (للكاتب) اكتب ذلك . حسن .. حسن .. جـدا . والآن تفضل وقل لى من تعرف ومن تصاحب . هل تعرف ايفاشنكو ؟

بوريس : لا .

ضابط البوليس : كلاين ؟

بوريس : لقد سمعت عنه ، ولكنى لم أقابله مطلقا .

(يدخل قسيس عجوز يحمل صليبا وفى يده الكتاب المقدس ـ يتجه الكاتب اليه ويتناول بركته) .

ضابط البوليس : أحسب أن هذا القدر يكفينى ويجب أن أقف عند هذا الحد.

انني لا أظن انك رجل خطر ، ولست تدخل فى اختصاصنا . انني أتمنى أن يطلق سراحك عاجلا . وداعا .

(يصافح بوريس ويضغط على يده) .

بوريس : هناك ما أود أن أقوله لك ، أرجوك أن تسامحني اذ يجب أن أقوله لك . لماذا اخترت هذه الوظيفة الشريرة القاسية ؟ انني أنصحك أن تتخلى عنها .

ضابط البوليس : (مبتسما) شكرا لك على هذه النصيحة ، ولكن لدى أسبابي ! احتراماتي يا سيدى (للقس) أبى ، انني أترك لك مكانى .

(يخرج مع الكاتب) .

القس : لماذا تسبب للسلطات كل هذا الحزن والأسى برفضك القيام بواجبك كمسيحى فتخدم قيصرك ووطنك ؟

بوريس : (مبتسما) تماما ، لأنني أريد أن أكون مسيحيا صادقا فانني أرفض أن أكون جنديا .

القس : ولماذا تريد ذلك ، أولا يحث الانجيل على أن يضحى الانسان بحياته من أجل صديق ؟ ان ذلك يجعل منه مسيحيا صادقا .

بوريس : أجل ، ينبغى على الانسان أن يضحى بحياته هو ، لا أن ينتزع حياة الآخرين . وهذا هو بالضبط ما أحاول الآن أن أقوم به ، وهو أن أضحى بحياتى .

القس : انك لا تدعم أقوالك بسند صحيح من الانجيل أيها الشاب ، لقد قال يوحنا المعمدان للجنود [1] ....

بوريس : (مبتسما) ان هذا ان دل على شيء ، فعلى أن الجنود حتى فى ذلك الزمان كانوا يسرقون ولقد نهاهم عن السرقة .

---

(١) المترجم : يشير القسيس الى ما جاء فى انجيل لوقا ــ الفصل الثالث الآية ١٥ : وسأله الجند قائلين ، ماذا نصنع نحن أيضا ، فقال لهم : لاتظلموا أحدا ولا تفتروا عليه واقنعوا بوظائفكم .

القس : حسن ، ولكن ما الذى يجعلك ترفض أداء اليمين .

بوريس : انك تعلم أن الأناجيل تحرم ذلك .

القس : هذا غير صحيح بالمرة . انك تعرف عندما قال بيلاطس للمسيح « أقسمت عليك باسم الله الحى هل أنت مسيح ؟ فرد المسيح عليه قائلا : أنا هو » وهذا يؤكد أن الحلف غير ممنوع .

بوريس : ألست خجلا من أن تتكلم هكذا وأنت الرجل العجوز المسن [1] .

القس : خذ بنصيحتى ، ولا تكن عنيدا ، أنا وانت لن نستطيع تغيير هذا الكون ، ما عليك الا أن تقسم اليمين وستشعر بعدها براحة كبيرة . اترك للكنيسة يا بنى أن تحدد ما الذى يعتبر خطيئة وما لا يعتبر .

بوريس : أى أدع الأمر لك أنت ! أو لا تخاف من احتمال مسئولية كل هذه الأوزار على كاهلك ؟

القس : أى أوزار تلك التى تتحدث عنها ،لقد ترعرعت فى ظل الايمان واشتغلت راعيا فى الكنيسة طوال ثلاثين سنة . اننى لا يمكن أن أحمل فوق كاهلى أوزارا أبدا .

بوريس : خطيئة من اذن ، عندما تغش هذا العدد الكبير من الناس ؟ ما الذى يحمله هؤلاء الرفقاء المساكين فى رءوسهم (يشير للحراس) .

القس : أنت وأنا أيها الشاب لن نستطيع أن نقرر هذه الأمور . ان واجبنا يتلخص فى اطاعة من هم فوقنا .

بوريس : اغرب عن وجهى ، اننى حزين من أجلك ، لست أستطيع الا أن أعترف لك ، ان الاستماع اليك يثير فى نفسى الاشمئزاز .

لو أنك كنت كهذا الجنرال الذى كان يخاطبنى من لحظات ، لكان لى

---

(١) كان تولستوى شديد التمسك بأمر الانجيل الصريح بعدم الحلف ، وكان يستشيط غضبا من الردود السفسطانية التى كان يحاول القساوسة الرد بها على حجته . (انظر هامش ص ١١٨ من حيث نسبة هذا القول لبيلاطس)

معك شأن آخر ، ولكنك جئت تحمل الىّ صليبا وانجيـلا ، لتحملنى باسم هذا المسيح على انكار المسيح (مهتـاجا) اغرب عن وجهى — دعنى وشأنى . خذونى الى السجن ، حتى لا أرى أحدا ... اننى متعب ، متعب جدا .

القس : حسن ، اذا كان الأمر كذلك ، وداعا .

(يدخل أركان الحرب) .

أركان الحرب : حسن ؟!

القس : عناد شديد ، وعدم خضوع وتمرد أشد .

أركان الحرب : اذن لقـد رفض أداء يمين الولاء والالتحـاق بالخـدمة العسكرية ؟

القس : ولن يفعل ذلك تحت أى مؤثر .

أركان الحرب : معنى ذلك أنه يجب أن يرسل الى المستشفى .

القس : ويبلغ عنه أنه مريض ؟ فى الواقع هذا أحسن حل للمسألة ، والا فسوف يعدى باقى الجنود ويضلهم .

أركان الحرب : يجب أن يوضع فى احدى الحجرات تحت المراقبـة فى مستشفى الأمراض العقلية . هذه هى الأوامر المعطاة لى .

القس : هذا هو التصرف الطبيعى . احتراماتى يا سيدى . (يخرج)

أركان الحرب : (يقترب من بوريس) . تعال معى من فضلك . ان الأوامر هى أن أقودك .

بوريس : الى أين ؟

أركان الحرب : الى المستشفى ، حيث يكون فى استطاعتك أن تقيم فى هدوء ويكون لديك الوقت الكافى للتفكير .

بوريس : لقد فكرت فى كل ذلك منذ أمد بعيد ، ومع ذلك فلنذهب .

(يخرجـون) .

(ســتار)

المنظر الثالث

(حجرة فى المستشفى . كبير الأطباء . دكتور مساعد . ضابط مريض ، يرتدى قميصا طويلا . اثنان من المرضين يرتدون بذلة من قطعة واحدة ـ (أوفرول) .

الضابط المريض : وأنا أقول لك انك تقودنى بهذه الطريقة الى الهلاك . لقد أحسست أكثر من مرة أننى قد شفيت وأصبحت فى حالة جيدة .

كبير الأطباء : ينبغى عليك ألا تتهيج . اننى سأكون أسعد الناس عندما أوقع لك الأمر بمغادرة المستشفى . ولكنك تعرف أنت نفسك أن الحرية ستكون خطرا عليك ، ولو كنت واثقا أن هناك من سيهتم بشئونك .

الضابط المريض : أنت تتصور أننى سأعود من جديد للسكر ؟ ولكنى أؤكد لك أننى أخذت درسا كافيا . وكل يوم جديد يمر علىّ وأنا هنا فى هذه المستشفى لن يكون له أى فائدة الا فى ايذائى (يبدأ فى التهيج) . انك تتصرف على عكس ما كان ينبغى عليك أن تعمله ، انك قاس ، ان الأمر بالنسبة لك أمر هيّن .

كبير الأطباء : اياك والصياح (يشير الى المرضين الذين يقتربون من المريض) .

المريض : انه من السهل عليك أن تناقش وتجادل ، لأنك حر طليق ، ولكن الأمر ليس كذلك بالنسبة لنا ، نحن الذين نعيش وسط المجانين (للممرضين) ماذا تريدان منى ؟ ابعدا عنى .

كبير الأطباء : أرجوك أن تحتفظ بهدوئك .

المريض : وأنا أرجوك وأطلب منك أن تطلق سراحي .

(يصرخ ، ويهجم على الطبيب • ولكن الممرضين يمسكان به ويجري منهما ، ثم لا يلبثان أن يتغلبا عليه في النهاية ويخرجان به) •

مساعد الطبيب : لقد عاودته النوبة من جديد ، لقد أوشك أن يمسك بك هذه المرة .

كبير الأطباء : انه جنون السكر . لا يمكن عمل شيء . غير أني ألاحظ عليه بعض التحسن .

(يدخل أركان الحرب) •

أركان الحرب : كيف حالكم ؟

كبير الأطباء : أسعدت صباحا .

أركان الحرب : لقد أحضرت لكم اليوم مخلوقا مسليا ، انه يدعى البرنس شيرميشانوف ، وقد دعي للتجنيد ولكنه يرفض أداء الخدمة العسكرية لأسباب دينية ، ولقد عهد به الى البوليس . ولكن البوليس قال انه لا يدخل في اختصاصه ، بعد أن ثبت لهم أنه ليس سياسيا متآمرا . وقد حاول القسيس من ناحية أخرى أن ينصحه ولكن دون جدوى .

كبير الأطباء : (ضاحكا) . ثم قررتم حسب العادة أن تأتوا به الينا كما لو كنا محكمة استئناف عليا ! حسن ، دعنا نره .

(يخرج مساعد الطبيب) •

أركان الحرب : انهم يقولون عنه أنه شاب مثقف جدا ، وهو خطيب فتاة من الأثرياء . ان الأمر شاذ من غير شك ، وفي رأيي أن هذا المستشفى هو أليق مكان به .

كبير الأطباء : أجل ، انه نوع من الهوس .

(يدخل بوريس) •

كبير الأطباء : (لبوريس) اننى مسرور لرؤيتك ، أرجوك أن تجلس لنتحدث قليلا معك .

(لأركان الحرب) هل لك أن تدعنا وحدنا ؟

(يخرج أركان الحرب) .

بوريس : اننى أطلب منك — اذا كنت معتزما أن تغلق علىّ بابا فى مكان ما ، أن تكون لطيفا وتعجل بذلك . فاننى فى أشد الحاجة الى الراحة .

كبير الأطباء : عفوا ، ولكننا يجب أن نراعى اللوائح والتعليمات . ويجب أن أسألك بعض الأسئلة .

ما الذى تحس به ؟ مم تشكو ؟

بوريس : لست أشكو شيئا . وأنا فى أحسن حال .

كبير الأطباء : أجل ، ولكنك لا تتصرف كبقية الناس .

بوريس : اننى أتصرف كما يمليه علىّ ضميرى .

كبير الأطباء : ولكنك رفضت كما ترى أن تؤدى الخدمة العسكرية ، فعلى أى أساس فعلت ذلك ؟

بوريس : اننى مسيحى ، وعلى هذا الأساس لا أستطيع أن أقتل أحدا .

كبير الأطباء : ولكن على الانسان أن يدافع عن وطنه ضد العدو وأن يمنع هؤلاء الذين يريدون قلب النظام الاجتماعى وتدميره من تحقيق مآربهم.

بوريس : لا يوجد الآن [1] عدو يهاجم وطننا ، وهناك كثيرون بين الحكام يعملون على تدمير النظام الاجتماعى بأكثر من هؤلاء الذين يعملون على ذلك من المحكومين ، وذلك عن طريق العسف والجبروت .

كبير الأطباء : ولكن ما الذى تعنيه من قولك هذا ؟

بوريس : أعنى أن سبب الشر الحقيقى وهو الخمر أو بالأحرى الفودكا

(١) فى هذه الاجابة ما يشتم منه أن تولستوى يبرر الحرب الدفاعية .

يباع للناس بواسطة الحكومة . والدين الذى ترعاه الحكومة وتحميه ليس فى حقيقته الا مجموعة من الأضاليل والأباطيل والغش والخداع . وهذه الخدمة العسكرية التى تطلب الآن منى هى فى نظرى السبب الرئيسى للانحطاط بالناس ، ومع ذلك فهى تطلب منى باسم الحكومة .

كبير الأطباء : معنى هذا أنه من رأيك أن الحكومة والدولة ليستا ضروريتين .

بوريس : هذا ما لا أعرفه ، ولكن الذى أعرفه على وجه التحقيق ، هو أنه يجب علىّ ألا أساهم بنصيب فى عمل الشر .

كبير الأطباء : ولكن ما الذى يحل بالدنيا ، لو لم نعط العقل لننظر به أمامنا ....

بوريس : لقد أعطى لنا العقل لنعرف أن النظام الاجتماعى لا يمكن حمايته بالقوة والعنف ، ولكن بالاحسان وحب الخير ، وان رفض انسان واحد مثلى فى أن يساهم بنصيب فى الشر لا يمكن أن يكون شيئا خطيرا.

كبير الأطباء : حسن ، والآن دعنى أفحصك قليلا ، هل لك أن تتكرم بالنوم هنا .

(يرقد بوريس ويشرع فى فحصه) .

هل تحس هنا بألم ؟

بوريس : لا .

كبير الأطباء : ولا هنا ؟

بوريس : كلا .

كبير الأطباء : خذ نفسا عميقا من فضلك ، والآن كف عن التنفس .

(يأخذ شريط قياس ويقيس بها مقدم الرأس والأنف)

والآن أرجو أن تكون لطيفا وتغمض عينيك وتسير .

بوريس : ألست خجلا من هذا الذى تعمل ؟

كبير الأطباء : ماذا تعنى ؟

بوريس : أعنى هذه السخافات ! انك تعلم جيـــدا أن صحتى على ما يرام واننى أرسلت هنا لأننى أرفض أن أساهم بنصيب فى أعمـال الشر ، ولأنهم عجزوا عن أن يردوا على الحجج التى بسطتها لهم . وهذا هو سر محاولتهم الادعاء علىّ بالجنون . وأنت تعرف ذلك كله ، ومع ذلك تعاونهم على تحقيق هذا الغرض الشرير . ان ذلك فظيع ومخجل ، فلا تفعله .

كبير الأطباء : اذن أنت لا تريد أن تمشى كما طلبت منك !

بوريس : كلا ، لا أريد ! ان باســتطاعتك أن تعذبنى ، ولكن يجب أن تتولى ذلك بنفسك ولن أساعدك (بحرارة) دعنى وشأنى .

(الطبيب يضغط على زر الجــرس ، فيدخل اثنـــان من المرضين) .

كبير الأطباء : اياك والهياج ، اننى مقدر أن أعصـــابك لا بد أن تكون متوترة ، هل لك أن تذهب معهم الى حجرتك ؟

(يدخل مساعد الطبيب) .

مساعد الطبيب : بعض الزوار قد جاءوا ليروا تشيرميشانوف .

بوريس : من هم ؟

مساعد الطبيب : نيقولاس ايفانوفتش وابنته .

بوريس : اننى أحب أن أراهم .

كبير الأطباء : لست آرى سببا يمنع من ذلك . باستطاعتك آن تقابلهم هنا .

(يخرج ومعه مساعد الطبيب والمرضان) .

(يدخل نيقولاس ايفانوفتش ولوبا) .

البرنسيس : (تنظر من الباب وتقول) ادخلوا أنتم أولا وسأدخل بعدكم.

لـــوبا : (تتجه بمجرد دخولها الى بوريس وتأخذ رأسه بين يديهـا وتقبله) .

بوريس ! يا بوريس المسكين !

بوريس :لا .... لا بأس عليّ . اننى أشعر بنفسى فى أحسن حال ، اننى ممتلىء بالسرور والابتهاج وأشعر بنفسى منتشيا .كيف حالك ؟

(يقبل نيقولاس ايفانوفتش) .

نيقولاس ايفانوفتش : لقد جئت لأقول لك شيئا واحدا . يجب أن تعرف أولا وقبل كل شيء أنه فى مثل هذه الأمور ، قد يكون من الأسوأ أن يبالغ الانسان فى عمل شيء مما لو لم يعمله على الاطلاق .

وفى حالتك هذه يجب أن تتصرف على نهج الانجيل ، فلا ينبغى أن تفكر فى الأمر مقدما ، فتقول فى نفسك سوف أفعل هكذا ، أو سوف أتكلم هكذا « فعندما يرفعونك على الصـــليب لا تفكر ماذا ستقول أو ماذا ستفعل ، لأنك لن تكون أنت الذى يتكلم أو يتصرف بل روح القدس ، الله سيتولى عنك القول والعمل » .

هذا هو منهاج الانجيل ، ومعنى ذلك أن لا تتصرف ، لأنك فكرت مقدما فيما ينبغى قوله أو عمله ، وانما تتصرف فى الوقت الذى تحس فيه بكل كيانك ، انك لا تستطيع أن تفعل غير ذلك .

بوريس : وهذا هو ما عملته تماما ، اننى لم أكن أفكر فى رفض الخدمة العسكرية ، ولكنى عندما رأيت كل هذا الغش والخـــداع يحيط بى ، هذه الوثائق ، رجال البوليس والضباط وهم يدخنـــون ، لم أتمالك نفسى عن قول ما قلت ، ولقد امتلأت نفسى بالخـــوف والذعر بادىء

الأمر ، ولكن ذلك لم يدم الا ريثما شرعت فى الادلاء بأقوالى ، فاذا بكل شىء يصبح أسهل وأبسط ، بل وأمتع بكثير مما كنت أتصور .

(تجلس لوبا وتبكى) .

نيقولاس ايڤانوفتش : اياك قبل كل شىء أن تفعل شيئا لأجل أن تمدح أو يثنى عليك ، أو لتكسب موافقة أو تقدير أشخاص لهم فى نفسك منزلة ومكانة . وبالنسبة لى شخصيا ، فاننى أؤكد لك بصورة قاطعة أنك اذا حلفت اليمين حالا ، والتحقت بالخدمة العسكرية ، فان حبى وتقديرى لك لن ينقصا ، بل على العكس سوف يزيدان كثيرا عن ذى قبل ، ذلك أن الأعراض الخارجية فى هذه الدنيا ليست هى ذات القيمة الحقيقية ، وانما المهم هو ما يدور فى النفس فى داخل الروح البشرية .

بوريس : طبعا ، ولكن من المحقق من ناحية أخرى ، أن ما يدور فى النفس ، لا بد وأن يكون له مظاهر فى العالم الخارجى .

نيقولاس ايڤانوفتش : حسن ، لقد قلت لك رأيى . والآن ان والدتك هنا ، وهى فى حالة غضب وانزعاج شديدين ، واذا كان باستطاعتك أن تجيبها الى ما تطلبه منك ، وأن تحقق لها رجاءها ، فأرجوك أن تفعل ، وهذا هو ما جئت لأقوله لك .

(يسمع من الخارج بكاء هستيرى ، يندفع الى داخل الحجرة مجنون يتبعه المرضون الذين لا يلبثون أن يسحبوه من جديد الى الخارج) .

لوبا : فظيع ، هذا فظيع ، هل يجب عليك أن تقيم هنا فى هذا المكان ؟

(تبكى) .

بوريس : ان اقامتى فى هذا المكان لا تخيفنى ، فأنا لم أعد أشعر بخوف من أى شىء ، اننى أشعر بسعادة .

ان الشيء الوحيد الذى أخشاه هو شعورك أنت بالموضوع . أرجوك أن تساعدينى وانى لواثق أنك ستفعلين ذلك .

لــــوبا : أيمكن أن أكون مسرورة من هذا الذى يحدث .

نيقولاس ايفانوفتش : أن تكونى مسرورة ! لا طبعا ، ان هذا مستحيل ، أنا شخصيا لست مسرورا ، اننى أتألم من أجله ، وبودى لو استطعت أن أحل محله . ومع ذلك ، فبالرغم من أننى أتألم ، فأنا أعرف أن ما يفعله بوريس الآن ، حق وخير .

لــــوبا : ربما كان خيرا ، ولكن متى يطلقون سراحه ؟

بوريس : لا أحد يعرف . اننى لا أفكر الآن فى المستقبل ، فان الحاضر جميل جدا ، وباستطاعتك أن تجعليه أجمل .

(تدخل والدته البرنسيس) .

البرنسيس : لم يعد فى استطاعتى أن أنتظر أكثر من ذلك .

(لنيقولاس ايفانوفتش) ، حسن . هل أقنعته ؟ هل وافق ؟ بوريا يا حبيبى ! انك تدرك مقدار ألمى ، أليس كذلك ؟ لقد عشت طوال ثلاثين سنة من أجلك ، أنت وحدك يا حبيبى ، أربيك وأعلمــك وأفرح بك ، والآن وقد تم كل شيء ، وقد كبرت ونضجت ، هل تريد أن تتخلى عن ذلك كله وتؤثر السجن والعار ؟ أوه ... لا ... لا . انك لن تفعــل ذلك يا بوريا يا حبيبى .

بوريس : أمى ، استمعى الىّ .

البرنسيس : (نيقولاس ايفانوفتش) لماذا انت ساكت ، لم لا تقول شيئا ، لقد دمرت حياته ، ويجب عليك أن تصلح ما أفسدت . آه ... ان الأمر لا يهمك فى شيء ... لوبا ، تكلمى معه .

لــــوبا : لم أستطع .

بوريس : أمى ! أرجوك أن تفهمى أن هناك أشياء مستحيلة لا يمكن

طلبها من الانسان ، كما لو طلبت منى أن أطير مثلا ، فكذلك طلبك منى أن ألتحق بالجيش ، ان هذا مستحيل .

البرنسيس : كلام فارغ . هذا ما تظنه أنت وتتصوره من أنك لا تقدر ولكن كل الناس خدمت فى الجيش ، وما زالوا يخدمون ، وليس فى ذلك أدنى صعوبة ، ولكنك أنت ونيقولاس ايفانوفتش قد اخترعتما نوعا من المسيحية ، وهو ليس من المسيحية فى شىء ، وانما تعاليم شيطانية ، قد اخترعتموها لتجعلوا كل انسان يتعذب .

بوريس : لقد قيل فى الانجيل ....

البرنسيس : لا تحدثنى عن الانجيل ، ليس فى الانجيل شىء من هذا التفكير ، ولو كان فيه ، فانه يكون سخيفا . بوريا يا حبيبى أشفق علىّ (ترتمى على قدميه) ارحم أمك . ان حياتى كلها لم تكن سوى آلام . ولم يكن بها سوى شعاع واحد من المسرة ، وأنت تريد الآن أن تحوله الى عذاب أليم ، بوريا ... بوريا . ابنى ، ارحمنى .

بوريس : أمى ! ان هذا صعب علىّ جدا ، ولست أستطيع أن أشرح لك الموضوع .

البرنسيس : تعال ... تعال لا ترفض حلف اليمين ، قل لهم انك ستخدم فى الجيش .

نيقولاس ايفانوفتش : قل لهم انك ستفكر فى الأمر مليا ، وفكر بالفعل فى الموضوع .

بوريس : حسن جدا ، سأفعل ذلك ، ولكن أنت أيضا يا أمى ، يجب أن تشفقى علىّ ، فالموقف صعب على كذلك .

(صيحات تسمع من الخارج) .

يجب أن تذكرى أننى فى مستشفى للمجاذيب ، ويمكن بالفعل أن أصبح مجنونا .

(يدخل كبير الأطباء) .

كبير الأطباء : سيدتى . ان هذا الموقف قد يحدث أسوأ النتائج . ان ابنك فى حالة شديدة من توتر الأعصاب ، وأحسب أنه يجب أن نضع حـدا لهذه المقابلة . ان باستطاعتكم الحضور بعد ذلك فى مواعيد الزيارة أيام الخميس والأحد . تفضلوا بزيارته قبل الظهر .

البرنسيس : حسن ... حسن ، سـوف أذهب ، وداعا يا بوريا فكر فى الأمر ، ارحمنى يابنى ، وقابلنى يوم الخميس القادم بأخبار سارة .

نيقولاس ايفانوفتش : فكر فى الأمر كما لو كنت ستموت غـدا ، وبهـذا فقط سوف تقرر الصواب ... وداعا .

بوريس : (يقترب من لوبا) وأنت ماذا تقولين لى ؟

لـوبا : ليس باستطاعتى أن أكذب ، اننى لا أفهم لماذا تعذب نفسك وتعذب كل من حولك .... أنا لا أستطيع أن أفهم وليس عندى ما أقوله.

(تخرج وهى تبكى . يخرج الجميع ما عدا بوريس) .

بوريس : (بمفرده) ما أشق ذلك على نفسى ! ما أصعب ما أعانيه ! الهى ... الهى ... ساعدنى (يصلى) .

(يدخل المرضون وهم يحملون قميص المرضى) .

هل لك أن تغير ملابسك من فضلك ؟

(يخلع بوريس ملابسه ويرتدى قميص المستشفى) .

ســتار

الفصل الرابع

المنظـــر الأول

(فى موسكو بعد عام من حوادث الفصل السابق ــ حجـــرة الاستقبال فى قصر آل سارنتوف مهيئة للرقص ــ الخدم يضعون بعض اصص المزروعات والزهور حول البيانو ــ تدخل مارى ايفانوفا فى ثوب حريرى رشـــيق ومعها أختها الكسنـدرا ايفانوفا) .

مارى ايفـانوفا : حفـلة راقصـة ؟ كلا مجرد استقبـال متواضع لأولادنا الصغار كما يقولون . لقد اشترك أولادى فى حفـــلات البرنسيس ماكوف التمثيلية ، ودعوا للرقص فى أكثر من مكان ، فأصبح من الواجب علىّ أن أرد هذه الدعوات .

الكسندرا ايفانوفا : أخشى أن نيقولاس ايفانوفتش لن يحب هذا .

مارى ايفانوفا : وما حيلتى فى ذلك ؟

(للخدم) ، ضعوا هذه هنا (لا لكسندرا) ان الله وحده هو الذى يعلم شـــدة حرصى ، على أن لا أسبب له أى ازعاج . على أية حال اننى أظن أنه لم يعد متشددا كما كان منذ عام مضى .

الكسندرا ايفانوفا : أبدا ... أبدا . انه كما كان تماما ، وكل ما هنالك من فارق أنه لم يعد يظهر ذلك كما اعتاد أن يفعل من قبل . لقد لاحظنا بالأمس ، كيف تغير وجهه عقب الغذاء عندما ســمع بالخبر ، ثم لم يلبث أن لزم حجرته .

مارى ايفانوفا : وماذا أستطيع أن أفعل ، ان الناس يجب أن تعيش فى نهاية

الأمر ولدينا الآن سبعة أولاد ، واذا لم نهيىء لهم بعض المسرات فى البيت ، فالله يعلم ماذا يفعلون للبحث عنها خارج البيت . ولست أكتمك أننى سعيدة الآن جدا من أجل ابنتى لوبا .

الكسندرا ايفانوفا : هل تقدم لخطبتها بالفعل ؟

مارى ايفانوفا : تقريبا ، كما لو كان خطبها رسميا ، لقد كلمها فى الموضوع ، وقد أجابته بالموافقة .

الكسندرا ايفانوفا : وهذا الخبر بدوره سوف يكون ضربة قاسية لنيقولاس .

مارى ايفانوفا : أوه ! ان نيقولاس يعلم بالأمر . لم يكن بوسعه ألا يعلم .

الكسندرا ايفانوفا : انه لا يحبه .

مارى ايفانوفا : (للخدم) ضعوا الفاكهة على البوفيه الجانبى .

(لالكسندرا) يحب من ؟ الكسندر ميخايلوفتش ؟

أوه ! طبعا لا يحبه . انه رمز حى لكل ما يعارض نظريات نيقولاس الحبيبة الى نفسه والأثيرة عنده . ان الكسندر شاب عصرى لطيف ورقيق الحاشية . ولكن ... أوه ، هذا الكابوس المخيف ، وأعنى به موضوع بوريس شيرميشانوف . هل تعرفين ماذا حلّ به ؟

الكسندرا ايفانوفا : لقد ذهبت ابنتى لويزا لزيارته ، وهو لا يزال هناك فى هذه المستشفى . وتقول أنه أصبح نحيلا جدا والأطباء باتوا يخشون على حياته أو عقله .

مارى ايفانوفا : أجل ، انه أحد الضحايا المفزعة لمبادىء نيقولاس . لماذا دمر حياته هكذا ، ما كنت أرغب فى ذلك قط .

(يدخل عازف البيانو) .

مارى ايفانوفا : (لعازف البيانو) هل جئت لتعزف على البيانو ؟

الموسيقار : أجل أنا عازف البيانو .

ماري ايفانوفا : أرجوك أن تجلس وتنتظر قليلا . هل لك في فنجان من الشاي ؟

الموسيقار : (يذهب نحو البيانو) . كلا ، شكرا .

ماري ايفانوفا : (لالكسندرا) لم أكن راغبة قط فيما حاق ببوريس . لقد كنت أحب بوريا ، ومع ذلك فلست أظن أنه كان الزوج الذي يليق بابنتي ، وخاصة بعد أن سمح لنفسه أن يتطوح الى هذا المدى مع نظريات نيقولاس ايفانوفتش .

الكسندرا ايفانوفا : ومع ذلك فان قوة يقينه وايمانه بهذه المبادىء مما يثير الدهشة تصوري الى أي حد يعاني ! لقد أكدوا له أنه ما بقي مصرا على عدم الخدمة العسكرية ، فسيظل قعيد مستشفى الأمراض العقلية، أو أنه يرسل الى أحد القلاع ليسجن فيها ، ومع ذلك فان جوابه ، دائما هو ذات الجواب ، وهو الرفض البات . وبالرغم من ذلك ، فان ليزا تقول لي أنه يفيض بالانشراح الذي يصل الى حد الفرح والمرح .

ماري ايفانوفا : متعصب ! ولكن ها هو الكسندر ميخايلوفتش قد جاء .

(يدخل الكسندر ميخايلوفتش ستاركوفسكي يرتدي ملابس السهرة) .

ستاركوفسكي : أخشى أن أكون قد جئت مبكرا .
(يقبل يدي السيدتين) .

ماري ايفانوفا : وهذا أحسن .

ستاركوفسكي : وأين ليبوف نيقولافينا ؟ (١)

ماري ايفانوفا : انها تختار بعض أغنيات الرقص لهذه الليلة .

ستاركوفسكي : اذا كنت تأذنين لي بذلك ، سأذهب لمساعدتها في هذه المهمة ؟

ماري ايفانوفا : بالتأكيد !

(بينما يتهيأ ستاركوفسكي للخروج من الحجرة اذا به يقابل لوبا مرتدية ثوب السهرة ، ولكنه محتشم لا يظهر الكثير من صدرها ، وهي تحمل في يدها وسادة محلاة بالشرائط ومرسوم عليها خطوط ونجوم) .

---

(١) أي ، الحب ابنة نيوقولاس . وهو اسم الدلع للوبا .

لــــوبا : آه ! هذا أنت جميل جدا . ان باستطاعتك أن تساعدنى هناك ثلاث وسائد أخرى فى حجرة الاستقبال ، اذهب وأحضرها كلها .

ستاركوفسكى : سأطير لأفعل ذلك .

مارى ايفانوفا : والآن يا لوبا . ان أصدقاءنا قادمون الليلة . ومن المؤكد أن بعضهم سيحاول أن يلمح أو يسأل ، فهل نعلن الخطوبة ؟

لــــوبا : كلا ... كلا ، يا أمى . ولماذا نفعل ذلك ؟ دعيهم يسألون . ان أبى لا يمكن أبدا أن يرضى عن ذلك .

مارى ايفانوفا : ولكنه يعرف أو على الأقل يحذر ، وعلى أية حال فلا بد أن يحاط علما بالموضوع ان عاجلا أو آجلا ، فمن الخير أن نعلن الخطوبة الليلة . ان هذا الخبر هو مفاجئة السهرة .

لــــوبا : كلا ... كلا . أرجوك يا أمى ألا تفعلى ذلك . ان هذا يفسد علينا الليلة كلها . كلا ... كلا ، لا يجب أن تفعلى شيئا من هذا .

مارى ايفانوفا : حسن . كما تريدين .

لــــوبا : اذا شئت فليكن ذلك بعد الرقص وقبل العشاء .

(يدخل ستاركوفسكى حاملا الوسائد) .

لــــوبا : هل جئت بهم ؟

مارى ايفانوفا : فلأذهب لألقى نظرة على صغارى .

(تخرج مع الكسندرا ايفانوفا) .

ستاركوفسكى : (حاملا ثلاث وسائد يسندها بذقنه . تتساقط منـــه بعض الأشياء أثناء مروره) .

لا تزعجى نفسك يا ليبوف نيقولافينا ، سوف التقط هذه الأشياء بنفسى ، لقد اخترت مجموعة طيبة من القطع الموسيقية ، وكل ما أرجوه هو أن يكون بقدرتى الليلة أن أقود الرقص كما ينبغى .

تعال يا فانيا .

فانيـــا : (يدخل حاملا بعض مختارات أخرى)

هذه هى كل المجموعة . لوبا ... الكسندر ميخايلوفتش فلنتراهن أينا الذى سيفوز بأكثر الرقصات مع فاتنات الليلة .

ستاركوفسكى : ان الأمر سيكون هينا بالنسبة لك ، لأنك تعرف جميع المدعوات وستكسبهن بسهولة ، أما أنا فيجب علىّ أولا أن أخلب ألباب السيدات الصغيرات قبل أن أفوز باجابتهن دعوتى ، ومعنى هذا أنك تبدأ متفوقا علىّ بأربعين نقطة .

فانيـــا : ولكنك من الناحية الأخرى عريس وخاطب ، أما أنا فما زلت مجرد صبى .

ستاركوفسكى : آه ، كلا ، أنا لم أصبح خاطبا بعد ، وأنا أسوأ من صبى .

لـــوبا : فانيـــا ، اذهب من فضلك الى حجـرتى واحضر لى زجاجة الصمغ ووسادة الدبابيس ، ولكن أتوسل اليك أن لا تكسر شيئا .

فانيـــا : سوف أكسر كل شىء (يعدو خارجا) .

ستاركوفسكى : (آخذا يدى لوبا) .

لوبا ، هل تسمحين لى ؟ اننى سعيد جدا (يقبل يدها) رقصة المازوركا لى وحدى ، ولكن ذلك لا يكفى ، فليس باستطاعة انسان أن يقول كثيرا فى رقصة المازوركا وأنا أريد أن أكلمك كثيرا . هل أبرق لأسرتى اننى قد قبلت نهائيا واننى أسعد الناس ؟

لـــوبا : أجل هذا المساء .

ستاركوفسكى : كلمة أخرى ، كيف سيتلقى نيقولاس ايفانوفتش الخبر ؟ هل أخبرته ؟ أجل ؟

لـــوبا : كلا ، لم أخبره حتى الآن ، ولكنى سأفعل ، وســوف يتلقى الخبر كأى أمر آخر يتعلق بالأسرة .

سيقول لى افعلى ما ترينه حسنا ، ولكنه سيغتم ويحزن فى سريرة نفسه .

ستاركوفسكى : وهل سيغتم لأننى لست بوريس شيرميشانوف ، لأنى مارشال النبلاء ؟

لوبا : أجل . وطالما كافحت نفسى ، بل وخدعتها ارضاء لخاطره ، واذا كنت اليوم أفعل بعض ما لا يحبه ، أو يرضى عنه ، فليس ذلك لأننى أصبحت أقل حبا له ، ولكن لأننى لا أستطيع أن أكذب ، وهو نفسه يطلب منا ألا نكذب . اننى أريد أن أعيش وأن أتمتع بحياتى .

ستاركوفسكى : والحياة ، هى الشىء الوحيد الحق فى هذا الوجود . حسن ، وما هو الموقف بالنسبة لبوريس شيرميشانوف ؟

لوبا : (فى حدة) ، لا تكلمنى عنه ، اننى أريد أن ألقى اللوم كله عليه فى الوقت الذى يتألم فيه . وانى أعرف أننى أفعل ذلك لأنى أحس أننى مذنبة فى حقه . وكل ما أعرفه الآن هو أن هناك حبا ، وأظن أنه حب حقيقى وهو ما لم أشعر به نحوه فى أى يوم من الأيام .

ستاركوفسكى : لوبا ، أحقا ما تقولين ؟

لوبا : انك تريد أن أقول لك اننى أحبك أنت هذا الحب الحقيقى ، ولكنى لن أقول ذلك ، اننى أحبك حبا من نوع آخر ، وهو بدوره ليس الحب الحقيقى كذلك ، لا هذا وحده أو ذاك يمثل الحب الحقيقى . لو كان من الممكن أن يمتزج الاثنان معا !

كلا ، كلا ، اننى راض بطراز حبى . (يقبل يدها) ، لوبا !

لوبا : (تدفعه عنها) كلا ، دعنا نخرج هذه الأشياء ، فقد بدأ المدعوون يفدون .

(تدخل البرنسيس وتونيا وبنت صغيرة)

لوبا : (للبرنسيس) ستكون هنا أمى حالا .

البرنسيس : هل نحن أول الوافدين ؟

ستاركوفسكى : لا بد على أى حال من أن يكون انسان ما هو أول الوافدين.
لقد اقترحت مرة أن نصنع عروسا من المطاط لنجعلها أول الوافدين .

(يدخل ستيبا وفانيا يحمل الصمغ ووسادة الدبابيس) .

ستيبا : (مخاطبا تونيا) . توقعت أن أراك الليلة الماضية فى الأوبرا الايطالية .

تونيا : كنت عند خالتى نحيك بعض الملابس للسوق الخيرية .

(يدخل بعض الطلاب — سيدات — مارى ايفانوفتش والكونتيس) .

الكونتيس : هل لن نرى نيقولاس ايفانوفتش الليلة ؟

مارى ايفانوفا : كلا ، انه قلما يغادر حجرة مكتبه ليشاركنا فى اجتماعاتنا .

ستاركوفسكى : رقصة الكوادريل من فضلك .

(يصفق بيديه — يأخذ الراقصون أماكنهم ، تعزف الموسيقى — يبدأ الرقص) .

الكسندرا ايفانوفا : (تقترب من مارى ايفانوفا) ان نيقولاس منزعج بصورة مفزعة ، لقد عاد من توه من زيارة بوريس فوجد هذا المرقص . انه يعتزم الآن مبارحة المنزل والمدينة كلها ، لقد ذهبت الى باب حجرته فسمعته يتحدث الى الكسندر بتروفتش .

مارى ايفانوفا : واذن ؟

ستاركوفسكى : (وهو يقود الرقص)
السيدات يؤلفن دائرة ، الرجال يتقدمون .

الكسندرا ايفانوفا : لقد استقرت عقيدته على انه يستحيل عليه مواصلة هذه الحياة ولذلك فقد قرر أن يهجر البيت والمدينة وأن يرحل بعيدا عن هنا .

مارى ايفانوفا : كم يعذبنى هذا الرجل !

(تخرج) .

ستار

المنظر الثـــانى

(حجرة نيقولاس ايفانوفتش ـ تسمع موسيقى الرقص عن بعد ـ نيقولاس ايفانوفتش يرتدى معطفا ـ يضع خطابا على المائدة ـ الكسندر بتروفتش يرتدى أسمالا بالية ويقف الى جـــواره) .

الكسندر بتروفتش : لا داعى للقلق ، باستطاعتنا أن نصـــل الى القوقاز دون أن ننفق مليما واحدا ، وهناك سيكون بقدرتك أن تعيش مستقرا .

نيقولاس ايفانوفتش : سنركب القطار حتى مدينة تولا ، وبعدها نواصل السير على الأقدام ، هيا ، اننى مستعد .

(يضع الخطاب وسط المائدة ويتجه نحو الباب فتقابله مارى ايفـــانوفا) .

أوه ! لماذا جئت الى هنا ؟

مارى ايفـانوفا : لماذا حقا ؟! لكى أمنعك عن الاقدام على عمل قاس ، لِمَ كل هذه التصرفات ، لماذا تفعل ذلك ؟

نيقولاس ايفانوفتش : لماذا ؟ لأنه لم يعد باستطاعتى أن أواصل العيش بهـــذا الأسلوب لم أعد أقوى على احتمال هذه الحياة الفاسدة الدنسة .

مارى ايفـانوفا : هذا فظيع ! هل أصبحت تعتبر حياتى كلها التى كرستها من أجلك ومن أجل أولادنا ، حياة دنس وفجور ؟

(تلمح الكسندر بتروفتش ، فتقول لزوجها بالفرنسية) .

أرجوك على الأقل أن تبعد هذا الرجل من هنـــا ، فليس من اللائق أن يسمع حديثى معك .

الكسندر بتروفتش : فهمت ... دائما أنا ... أنا يجب أن أذهب .

نيقولاس ايفانوفتش : انتظرنى قليلا فى الخارج يا الكسندر بتروفتش سألحق بك بعد لحظة .

(يخرج الكسندر بتروفتش) .

مارى ايفانوفا : هل يمكنك أن تقول لى أى شيء يجمع بينك وبين هـــذا الرجل، ولماذا كان هو أقرب اليك من زوجتك ، ان هذا شيء لا يمكن أن يفهم أبدا . والى أين أنت ذاهب ؟

نيقولاس ايفانوفتش : لست أحب أن أتكلم فى هذا الموضـــوع ، فالأمر صـــعب بالنسبة الىّ ، ولقد كتبت لك خطابا أشرح لك فيه الموقف ، ولكن اذا شئت ، فسأحاول أن أقول لك فى هدوء .

مارى ايفانوفا : أنا لست أفهم ، لست أفهم لماذا تكره زوجتك التى ضحت من أجلك بكل شيء وتعذبها هكذا ؟

قل لى ، هل أسرفت فى الذهاب الى المراقص والحفلات ؟ هل استنزفت أموالنا فى شراء الملابس واعدادها ، هل اتخذت لى صاحبا غيرك ؟ أو هل غازلت انسانا ؟ ماذا فعلت ؟ ألم تكن حياتى كلها وقفا على العائلة ، ألم أرضع أولادى كلهم . أو لم أربهم بنفسى ، وفى هذا العام الماضى ألم تقع مسئولية تعليمهم الثقيلة على كاهلى أنا وحدى ، ومن الذى أصبح يدير جميع أموالنا ويشرف على أشغالنا . ألست أنا الذى يقوم بذلك كله ؟

نيقولاس ايفانوفتش : (مقاطعا) ولكن ذلك العبء كله وقع عليك لأنك رفضت أن تعيشى كما اقترحت عليك .

مارى ايفانوفا : ولكن هذا الذى اقترحته كان مستحيلا ...

اسأل الناس جميعا يقولون انك كنت تقترح المستحيـــل . من المستحيل أن تترك أولادنا ليشبوا فى جهل وأمّية وأن ينفضوا أيديهم من التعليم كما كنت تقترح ، وكذلك كان من المستحيل علىّ أن أشتغـــل غســـالة وطباخة .

نيقولاس ايفانوفتش : أنا لم أقترح ذلك أبدا .

مارى ايفانوفا : على أية حال ، لقد كان ما تقترحه شيئا شبيها بذلك . استمع الىّ انك مسيحى وأنت تريد أن تفعل الخير أليس كذلك ؟ انك تقول انك تحب الناس ، فلماذا تعذب المرأة التى وهبتك حياتها كلها هكذا ؟

نيقولاس ايفانوفتش : كيف أعذبك ؟ اننى أحبك ولكن ...

مارى ايفانوفا : أليس تعذيبا لى أن تهجرنى وتذهب بعيدا عنى ؟ ماذا سيقوم الناس ؟ واحدا من أمرين ، اما أننى امرأة فاسدة شريرة ، أو أنك رجل مجنون .

نيقولاس ايفانوفتش : وهو كذلك ، فلنقل اننى رجل مجنون ، ولكنى لا أستطيع أن أعيش هذه الحياة .

مارى ايفانوفا : ولكن ما هو هذا الشىء الفظيع فى حياتنا ؟ ألمجرد أننى لمرة واحدة فى الشتاء أقمت هذا الاستقبال الليلة ، وأقول لمرة واحدة تقديرا منى لكونك قد لا تحب هذا العمل ، ومع ذلك فقد جعلت هذا الاستقبال محدودا وبسيطا جدا ، اسأل مانيا وباربارا فاسيليفنا اذا لم يكن هذا الاستقبال محدودا وبسيطا جدا .

ان كل انسان يقرنى على أنه لم يكن بالاستطاعة عمل ما هو أقل من ذلك ، وانه كان من الضرورى اقامة هذا الاستقبال وأرى الآن أن ما فعلت كان جريمة شنعاء يجب أن أتجرع من أجلها العار . بل وليس العار فقط ، بل يجب أن أتحمل ما هو أسوأ من ذلك ، وهو أنك لم تعد تحبنى . أجل ، لقد أصبحت تحب كل انسان ما عداى ، تحب الدنيا كلها بما فيها ذلك السكير العربيد الكسندر بتروفتش .

ولكنى أنا مازلت أحبك ، ولن أستطيع أن أعيش بدونك ، فلماذا تفعل بى هكذا ؟ لماذا (تبكى) .

نيقولاس ايفانوفتش : ولكنك لا تريدين أن تفهمى حياتى ... حياتى الروحية .

ماری ايفانوفا : لطالما قلت لك اننى أريد أن أفهمها ، ولكنى لا أستطيع ، اننى أرى أن مسيحيتك جعلتك تكره أسرتك وتكرهنى ، ولكنى لا أستطيع أن أفهم لماذا ؟

نيقولاس ايفانوفتش : انك ترين أن الآخرين يفهمون .

ماری ايفانوفا : من ؟ الكسندر بتروفتش الذى يبتز منك بعض النقود ؟

نيقولاس ايفانوفتش : هو والآخرون . تونيا وفاسيلى نيكونوريتش . وحتى لو لم يكن هناك أى انسان يفهمها ، فان ذلك لا يؤثر فى موقفى .

ماری ايفانوفا : فاسيلى نيكونوريتش ، لقد تاب وأناب واستغفر وكفّر عن ذنبه فأعيد الى منصبه كقسيس ، أما تونيا التى تتحدث عنها ، فهى ترقص فى هذه اللحظة وتغازل ستيبا .

نيقولاس ايفانوفتش : انه يحزننى أن أسمع ما تقولين ، ولكن ذلك لا يحول الأبيض الى أسود ، ولا يمكن أن يغير ذلك من أسلوب حياتى . مارى ، أنت لست فى حاجة الىّ ، دعينى أرحل . لقد حاولت أن أشاركك حياتك ، وأن أدخل اليها بعض العناصر التى تؤلف حقيقة الحياة فى نظرى ، ولكنى لم أستطع ، فقد كان ذلك مستحيلا . لقد انتهى ذلك الى تعذيب نفسى وتعذيبك كما تقولين ، بل اننى لا أعذب نفسى فقط ، بل اننى أهدم الرسالة التى أحاول القيام بها .

ان من حق كل انسان بما فيهم الكسندر بتروفتش هذا الذى تسمينه سكيرا أن يقول عنى اننى منافق ، وأننى أتكلم ولكنى لا أفعل ما أقول . اننى أبشر بانجيل الفقر والمسكنة بينما أعيش وسط النعيم والترف ، مدعيا بأننى قد تخليت عن كل شيء لزوجتى [1] .

(١) نلاحظ قسوة تولستوى على نفسه واتهامها بالنفاق ، لأنه كان يفعل فى نهاية الأمر ذلك الذى ينعاه هنا ويصفه بهذا الوصف .
(المترجم)

ماري ايفانوفا : اذن فأنت خجل مما يقوله الناس ؟ ألا تستطيع حقا أن تكون أرفع من ذلك ؟

نيقولاس ايفانوفتش : ليست المسألة لأنني خجل ، وان كنت فى الحقيقة خجل ولكن المسألة أنني بموقفي هذا أفسد مشيئة الله .

ماري ايفانوفا : ألست تقول بنفسك مرارا وتكرارا : ان مشيئة الله تنفذ رغم ارادة الانسان ، ولكن دعنا من هذا ، فليست هذه هي المسألة . وقل لى ما الذى تريده منى ؟

نيقولاس ايفانوفتش : أو لم أقل لك ذلك أكثر من مرة ؟

ماري ايفانوفا : ولكنك تعرف أن هذا مستحيل يانيقولاس ، تصور الأمور فقط ، ان لوبا ستتزوج وفانيا سيدخل الجامعة ، وميسّى وكاتيا بدأتا تذاكران ، فكيف يمكن أن أحطم ذلك كله .

نيقولاس ايفانوفتش : ما الذى يجب عليّ أن أفعله اذن ؟

ماري ايفانوفا : افعل ما تقول انه ينبغى على الانسان أن يفعله . تذرع بالصبر والحب ، هل هذا صعب عليك جدا ؟ ان ما أطلبه منك هو أن تحتمل معنا ولا تذهب بعيدا عنا ! تعال ... ما الذى يؤلمك ، ماذا يعذبك ؟

(يدخل فانيا وهو يعدو) .

فانيـــا : ماما .... ماما ، انهم ينادون عليك .

ماري ايفانوفا : قل لهم لا أستطيع الحضور ، اذهب ، اذهب .

(يعدو فانيا خارجا) .

نيقولاس ايفانوفتش : أنت لا تريدين مواجهة المشكلة وجها لوجه ، ولاتريدين أن تفهميني .

ماري ايفانوفا : ليس ذلك لأنني لا أريد ، ولكن لأني لا أستطيع .

نيقولاس ايفانوفتش : لا ، انك لا تريدين ، ونحن نبتعد عن بعضنا أكثر وأكثر يوما

بعد يوم . ان كل ما أطلبه منك هو أن تدخلى فى مشاعرى ، أن تضعى نفسك لمدة لحظات مكانى ، وسوف تفهمين على الفور . ان الحياة هنا أولا وقبل كل شىء قد أصبحت حياة فساد ، أنا أعرف أن هـذا التعبير يضايقك ويزعجك ، ولكنى لا أستطيع أن أجد تعبيرا آخر ، أصف به هذه الحياة التى تقوم على الاغتصاب والسرقة ، لأن الأموال التى تعيشين بها أنت وأولادك مأخوذة من الأرض التى سرقت من الفلاحين . وهذه الحياة الفاسدة تنحط بأخلاق أولادنا مما سينتهى بواحـد من هؤلاء الصغار بالتعثر والتردى فى الهاوية . وأنت تطلبين منى مع اقتناعى بذلك أن أرقب أولادى وهم فى طريقهم الى الهـلاك . لا اننى لا أستطيع ، لا أستطيع احتمال رؤية هؤلاء الناس الذين يرتدون الردنجوت ويقومون بخدمتنا كما لو كانوا عبيدا . ان كل وجبة غذاء أتناولها هنا أصبحت بالنسبة لى عذابا وجحيما لا يطاق .

مارى ايفانوفا : ولكنا عشنا كذلك دائمـا من قبل ، أليس هـذا هو حال الناس جميعا سواء هنا فى بلادنا أو فى الخارج ؟

نيقولاس ايفانوفتش : ولكنى لم أعد قادرا على احتمال ذلك منذ اللحظة التى آمنت فيها أننا جميعا اخوان متساوون ، لم أعد أستطيع رؤيتها دون أن أتعذب.

مارى ايفانوفا : ذلك لأنك تريد أن تسر نفسك بهذا الأسلوب ، ان باستطاعة الانسان أن يخترع كل شىء .

نيقولاس ايفانوفتش : (بحرارة) هذا القصور فى الفهم بل وعدم الرغبة فى الادراك هو ما يعذبنى ، فلأضرب لك مثلا من يومنا هذا . لقد أمضيت هـذا الصباح فى حى رازانوف حيث يعيش المنبوذون . لقد رأيت طفلا يموت جوعا بكل معنى هذه الكلمة . ورأيت غلاما صغيرا يعانى مرض السكر ، وامرأة مريضة بالسل من عاملات الفحم تغسل الملابس فى العراء تحت هذا الصقيع . ثم عدت الى البيت فاستقبلنى خادم يرتدى رباط العنق

الأبيض وهو فى أبهى الحلل ، وكان هو الذى فتح لى البـاب ، ورأيت ابنى ذلك الولد الصغير يأمر هذا الخادم أن يحضر له بعض الماء ، وليس هذا الخادم سوى واحد من هذا الجيش الذى يعمل من أجلنا ، ثم ذهبت لزيارة بوريس ، الرجل الذى يضحى بحياته من أجل الحق ، فرأيت كيف يحاولون فى عمد واصرار أن يدفعوا هذا الرجل النقى القوى الارادة والعزيمة الى الجنون أو الانتحار حتى تستطيع الحكومة أن تتخلص منه.

انهم يعلمون كما أعلم ، أن قلبـه ضعيف ، ولذلك فهم يستفزونه ويستدرجونه الى حجرة مليئة بالمجانين ، كى يصاب بالجنون فعلا . ان الأمر مخيف ، مخيف جدا ، ومع ذلك ، فعنـدما أعود الى البيت ماذا أسمع ؟ أسمع أن العضو الوحيد فى عائلتنا الذى يفهم ولا أقول يفهمنى ، بل يفهم الحق ، قد تخلت عن خطيبهـا الذى تعهـدت له على الوفاء والاخلاص والمحبة ، كما تخلت عن الحـق كله واعتزمت أن تتزوج من شاب رقيع ، كذاب ....

ماری ايفانوفا : ما أروع هذه المسيحية ؟!

نيقولاس ايفانوفتش : أجل ، أنا أعرف أن ما أقوله الآن خطأ استحق من أجله اللوم والتعنيف ، ولكنى اضطررت لقوله كى أحملك على أن تضعى نفسـك مكانى . أريد أن أقول انها انحرفت عن الحق ...

ماری ايفـانوفا : أنت تقول انحرفت عن الحق ، ولكن بقية الناس وهم الأغلبية يقولون انها عدلت عن خطأ أوشكت أن تقع فيـه ، ها هو صـديقنا القسيس فاسيلى نيكونوريتش قد اعتقـد فى يوم من الأيام أنه كان مخطئا ، والآن ها هو يعود الى حظيرة الكنيسة من جديد .

نيقولاس ايفانوفتش : هذا مستحيل ...

ماری ايفـانوفا : لقد كتب ذلك لليزا وسوف تريك الخطاب بنفسها ، ان هذا

الطراز من الهداية الذى تبشر به مزعزع جدا ولا يستطيع أن يستمر طويلا . انظر الى تونيا .

ولست أريد أن أتكلم فى حالة الكسندر بتروفتش الذى يعتبر العملية كلها بالنسبة له مسألة تجارة مربحة .

نيقولاس ايفانوفتش : (غاضبا) حسن ، اذن . كل ذلك لا يهم ، ان ما أريده منك هو أن تفهمينى . ان الحق هو الحق ، وكذلك فانه يؤذينى كثيرا جدا أن يكون فى البيت الآن حفلة راقصة وشجرة عيد الميلاد ومئات من الروبلات تنفق على ذلك كله وتبعثر هنا وهناك ، بينما هناك أقوام يموتون من الجوع . اننى لا أستطيع احتمال هذه الحياة . ارحمينى ، أشفقى علىّ . اننى كئيب وحزين الى درجة الموت . دعينى أرحل ... الوداع .

مارى ايفانوفا : اذا رحلت فسوف أرحل معك . واذا أبيت أن أرحل معك فسوف أقذف بنفسى تحت عجلات القطار الذى ستسافر به وليذهب الجميع الى جهنم بما فيهم ميسىّ وكاتيا .

أوه ... يا ربى ! يا الهى ما هذا العذاب الذى أعانيه ، لماذا كتب علىّ أن أتعذب هكذا ... ؟ لماذا ، لماذا ! (تبكى).

نيقولاس ايفانوفتش : (على الباب) الكسندر بتروفتش ، اذهب الى بيتك فأنا لست مسافرا (لزوجته) حسنا ، سأبقى .

(يخلع معطفه)

مارى ايفانوفا : (تعانقه) لم يبق لدينا الا القليل لنعيش فى هذه الدنيا ، لا تدعنا نتلف كل شىء بعد ثمان وعشرين سنة من حياتنا معا . أعدك أننى لن أقيم بعد اليوم حفلات أو استقبالات ، كل ما أرجوه منك هو ألا تعاقبنى بهذه القسوة .

(يدخل فانيا وكاتيا يعدوان) .

فانيـــــا : ماما ، اسرعى ، تعالى .

مارى ايفـانوفا : أنا قادمة ، ها أنا قادمة . وعلى ذلك فليسامح كل منا الآخر .

(تخرج مع كاتيا وفانيا) .

نيقولاس ايفانوفتش : طفلة ! اما انها مجرد طفلة صغيرة . أو أنهـا امرأة ماكرة ! كلا ، انها طفل ماكر . أجل . أجل انها طفل ماكر .

(ناظرا الى السماء) . يخيّـل اليّ أنك لا تريد أن أكون خادما لك فى حمل رسالتك ، انك تريد منى أن أتجرع غصص المهـانة حيث يكون باستطاعة أى انسان أن يشير اليّ بأصبعه قائلا : هذا رجل يبشر ، ولكنه لا يمارس ما يبشر به . ليكن ، فلندعهم يقولون ذلك . انك تعرف خيرا منى ما هى ارادتك بالنسبة لى . الخضوع ، والمذلة ... ؟ آه ، لو كان باستطاعتى أن أرقى الى هذا المستوى !

(تدخل ليزا) .

لـــيزا : لقد أحضرت لك خطـــابا من فاسيلى نيكونوريتش . ان الخطاب موجه اليّ ، ولكنه طلب منى أن أبلغك اياه .

نيقولاس ايفانوفتش : أيمكن أن يكون ذلك حقا ؟

لـــيزا : نعم . هل أقرأه لك ؟

نيقولاس ايفانوفتش : أجل ، من فضلك .

لـــيزا : (تقرأ) اننى أكتب اليك لتبلغى كلامى لنيقولاس ايفانوفتش ، اننى شديد الأسف لما ترديت فيه من خطـأ قادنى للانحراف علنـا عن الكنيسة الارثوذكسية المقدسة ، وما أسـعدنى الآن أننى عـدت الى أحضانها . وكل رجائى الآن أن تحذو حذوى انت ونيقولاس ايفانوفتش وتسيرا فى نفس الطريق المستقيم ، طريق الحق ، أرجوك أن تسامحينى .

نيقولاس ايفانوفتش : لا بد أن يكونوا قد عذبوه طويلا حتى حملوه على قول ذلك وكتابته ، يا للرجل المسكين ! ومع ذلك فالأمر فظيع ، فظيع جدا !

لـــيزا : ولقد حضرت كذلك لأقول لك أن البرنسيس هنا ، لقـد صعدت الى الدور العلوى وهى فى حالة شديدة من الاهتيـاج ، وهى مصممة على أن تراك . لقـد كانت فى زيارة لبوريس ، وانى أنصح أن لا تراها أو تقابلها ، فليس هناك أى جدوى أو فائدة من هذه المقابلة .

نيقولاس ايفانوفتش : بل دعيها تأتى .... لقد أصبح من الواضح أن هذا اليوم قد كتب على أن يكون كله يوم عذاب وألم حتى نهايته .

لـــيزا : سأذهب اذن وأناديها .

نيقولاس ايفانوفتش : (بمفرده) أجل لو كان باستطاعتى أن أذكر دائما أن الحياة لا تقوم الا على خدمتك ؟ وانك عندما ترسل على المحن تترى فليس ذلك الا الدليل على انك تدرك اننى قادر على احتمالها وأن قواى ند وكفء لمواجهتها ، والا فهى ليست محنة .

أبى ... أبى ساعدنى ... ساعدنى كى أنفذ مشيئتك .

(تدخل الأميرة) .

البرنسيس : أنت تستقبلنى ! انك تطوق جيدى بهذا الشرف ؟ تقبـل احتراماتى ، اننى لا أقدم لك يدى لأننى أكرهك واحتقرك .

نيقولاس ايفانوفتش : ماذا حدث ؟

البرنسيس : لا شيء ! أمر بسيط جدا ، انهم ينقـلونه الى لواء التأديب حيث يجلد بالسياط ويعذب ، وأنت السبب فى ذلك كله .

نيقولاس ايفانوفتش : برنسيس ، اذا كنت تريدين شيئا منى فقولى ما هو ، ولكن اذا كنت قـد جئت لكى تسبينى فقط فانك تؤذين نفسـك . ليس باستطاعتك أن تهينينى لأننى أعطف عليك بكل قلبى وأشفق عليك .

البرنسيس : يا للاحسان ! يا للرحمة المسيحية ، كلا يا مستر سارنتوف لم يعد باستطاعتك أن تخدعنى ، لقد أصبحنا نعرفك الآن جيدا . لقد حطمت ابنى ، ولكن ذلك لا يهمك ولا يعنيك الى حد أن تقيم الحفلات الراقصة

فى بيتك وابنتك خطيبة ابنى ستتزوج زواجا موفقا سعيدا ينال بركتك ورضاءك فى الوقت الذى تتظاهر فيه بأنك تحيا حياة بسيطة ، وتروح تشتغل فى النجارة . أوه ! كم أنت بغيض الى نفسى وكريه بهـذا الرياء والنفاق الذى أنت غارق فيه الى الأذقان .

نيقولاس ايفانوفتش : أرجوك ألا تهيجى نفسك الى هذا الحد أيتها الأميرة ، وقولى لى ما الذى جئت لى من أجله لكى أعمله لك . فلست أشك لحظة أنك لم تأت الى هنا لمجرد الرغبة فى سبى وتعنيفى فقط .

البرنسيس : بل جئت من أجل هذا أيضا ، فاننى يجب أن انفس عن آلامى المتراكمة أما الشىء الثانى الذى جئت من أجله فهو هذا ، انهم ينقلونه الى فرقة التأديب لكى يجلد ، وأنا لا أستطيع احتمال ذلك ، وأنت الذى فعلت ذلك ... أنت ! أنت ! أنت !

نيقولاس ايفانوفتش :لا ، ليس أنا ، بل الله . والله وحده . هو الذى يعلم مقدار حزنى من أجلك . لا تقاومى ارادة الله ، انه يريد ابتلاءك وامتحانك ، فاحتملى فى صبر ودعه .

البرنسيس : لا أستطيع أبدا أن أحتملها فى دعة . لقد كان ابنى هو محور حياتى كلها ، ولقد أخذته منى وحطمته ، فكيف أستطيع أن أكون هادئة ووديعة . لقد جئت اليك اليوم فى آخر محاولة لافهامك حقيقة الموقف ، لقد حطمت ابنى وأنت وحدك من دون الناس أجمعين من ينبغى عليك انقاذه . هيا اذهب واقنع من تشاء بوجوب اطلاق سراحه فورا ، قابل المحافظ ، قابل الامبراطور أو أى انسان تختار ، كل ذلك لا يعنينى وانما المهم عندى هو أن تعيد لى ولدى ... هذا هو واجبك ، أتسمع ، فاذا لم تفعل ذلك ، فأنى أعرف أنا ما الذى سأفعله ، سوف أجعلك تدفع ثمن فعلتك هذه .

نيقولاس ايفانوفتش : قولى لى ماذا باستطاعتى أن أفعل ، اننى مستعد لعمل كل شيء .

البرنسيس : يجب أن تنقذه ، فاذا لم تفعل فانى أحذرك ، وداعا .

(تخــــرج) .

(نيقولاس ايفانوفتش يبقى بمفرده ـ يضطجع على الأريكة . سكون ـ يفتح الباب فتسمع أصوات الموسيقى بشــدة . يدخل ستيبا) .

ســتيبا : بابا ليس هنا ، ادخلوا .

(يدخل الشبان والفتيات والأطفال وهم يرقصون أزواجا) .

لـــوبا (ملاحظة وجود والدها) آه ، أنت هنا .... عفوا ، سامحنا .

نيقولاس ايفانوفتش : (ينهض) لا عليكم

(تخرج الأزواج الراقصة) .

فاسيلى نيكونوريتش تراجع وتقهقر ، وقد حطمت حياة بوريس ، ولوبا تتزوج .

هل يمكن أن أكون قد أخطأت الطريق ، أخطأت لأننى آمنت بك، يا الهى (صارخا) لا ... لا ... أبى ... أبى ساعدنى .

ســــتار

الفصل الخامس

(ترك تولستوى النقاط الآتية لتكون مادة الفصل الخامس الذى لم يكتبه لأنه مات قبل أن يتم الرواية)

المنظر الأول

فرقة التأديب . زنزانة . السجناء يجلسون ويرقدون . بوريس يقرأ الأنجيل ويشرحه لهم . سجين مجلود يؤتى به . آه لو كان هناك بوجا شيف [1] لينتقم لنا على ما حل بك وبنا . البرنسيس تندفع داخل الزنزانة ولكنها تخرج بالقوة . تناضل أحد الضباط . السجناء يدعون الى الصلاة . بوريس يؤخذ الى زنزانة الحبس الانفرادى لكى يجلد .

المنظر الثانى

مكتب القيصر . سجاير . نكات . مداعبات . تعليق عن البرنسيس « دعها تنتظر » . يدخل أصحاب الالتماسات . رياء ونفاق — تدخل البرنسيس . التماسها يرفض . تخرج .

المنظر الثالث

مارى ايفانوفا تتحدث عن مرض مع الطبيب « لقد تغير ، لقد أصبح أكثر لطفا ولكن فى غير روح » .

يدخل نيقولاس ايفانوفتش . يتحدث مع الطبيب عن عدم جدوى العلاج، ولكنه من أجل خاطر زوجته يوافق عليه . تدخل تونيا وستيبا . لوبا مع ستاركوفسكى . حديث حول موضوع الأرض — نيقولاس يعمل جاهدا لعدم ايذائهم . يخرجون جميعا .

(١) بوجاشيف زعيم ثورة طاحنة فى روسيا فى القرن الثامن عشر .

نيقولاس ايفانوفتش مع ليزا ، « اننى فى شك دائم عما اذا كنت على حق أو أن تصرفاتى كانت على صواب . اننى لم أحقق شيئا . لقــد هلك بوريس ، وتنكر فاسيلى نيكونوريتش ، وجعلت من نفسى قدوة هزيلة . من الواضح أن الله لا يريد أن أكون أحد خدامه ، ان له خداما كثيرين ، وهو قادر على تحقيق مشيئته عن غير طريقى ، ومن يدرك هذه الحقيقة يستطيع أن يعيش فى سلام » .

تخرج ليزا — يصلى . تدخل البرنسيس الى الحجرة مسرعة ، وتطلق عليه النار . يدخل كل أعضاء الأسرة الى الحجرة ، يقول لهم انه هوالذى أصاب نفسه بحادث خطأ . يكتب التماسا للامبراطور .

يدخل فاسيلى نيكونوريتش ومعه بعض أفراد من طائفةالدكهوبورز الذين رفضوا الخدمة العســكرية [1] يموت وهو سعيد أن خــداع الكنيسة وأضاليلها قد افتضحت وانه فهم معنى حياته .

تبدأ حوادث هذه القصة فى سنة ١٨٨٠ وما بعدها وتستمر خــلال أعوام ١٩٠٠ ، ١٩٠٢

المترجم :هذه الاشارات لمحتويات الفصل الخامس رغم ايجازها ، كافية لتصوير باقى حوادث المسرحية ، وهى تشفى غليل القــارىء لمعرفة النهاية التى انتهى اليها نيقولاس ايفانوفتش وكيف كفر بدمه عن الآلام التى سببها للآخرين ، ولكنه لم يغمض عينيه للمرة الأخيرة الا بعد أن أحس بنشوة انتصار مبادئه ، بقيــام هذه الطائفة التى أعلنت رفضها للخدمة العسكرية .

تمت والحمد لله .

---

(١) الدكهوبورز طائفة من الروسيين الذين رفضوا الخــدمة العســكرية فاضطهدوا من جراء ذلك ، وقد هاجروا من القوقاز الى كنــدا سنة ١٨٩٩ وكانت حركتهم هذه مبعث سرور واهتمام تولستوى .

اقرأ للمؤلف

كتـــــاب

الطاقة الإنسانية

الذى صدر أخيرا فى خمسمائة صفحة فأحدث هزة عميقة فى الأوساط العلمية والأدبية وتلقى المؤلف عشرات الرسائل من جهابذة الفكر واعلامه يصـــفون الكتاب بأنه موسوعة وأنه اعظم ما صدر فى العالم العربى فى الأعوام الأخيرة ، وقد نوهت كبرى الصحف والمجلات العربية بهذه الحقيقة ، وحسبنا أن نثبت فيما يلى المقال التحليلى الرائع الذى كتبه الاستاذ الكبير عباس محمود العقاد ، بناء على طلب مجلة قافلة الزيت العربية ، فهو يغنى عن كل تعليق وبيـــان للتعريف بخطورة الكتاب وتقريب موضوعه الى الأذهان ٠

كتاب الموسم

كتب الموسم فى اصطلاح النقاد والناشرين هى كتب تتوافر لها فى جميع الاحوال خاصتان : احداهما فى الموضوع والاخرى فى التأليف ٠

ويغلب فى الخاصة الموضوعية أن يكون موضوع الكتاب محـــورا للبحث فى مسألة انسانية كبرى ، تتناولها الافكار من وجهات نظر متعددة وعقائد مختلفـة ، ولا ينقطع البحث فيها زمنا من الأزمنة ، ولا سيما الأزمنة التى توصف بأنها أزمنة استقبال أى أزمنة البحث عن قبلة واتجاه ٠

ويغلب على خاصة التأليف أن يكون للمؤلف طابعه الخاص فى كل فكرة عامـة يعرضها ، فلا تتماثل الكتب المتعددة فى الموضوع بعينه اذا هى صدرت من أقلام شتى ٠

والكتاب الذى بين ايدينـــا من كتب الموســـم بموضـــوعه ، وبتأليفـــه ، وهو كتاب الطاقة الانسانية لمؤلفه الأستاذ أحمد حسين المحامى ٠

موضوعه هو تدبير طاقة النفس الانسانية بوسائل الارادة والمعرفة ، وطريقته تظهر للقارىء من كلمات قليلة تحت عنوانه كتبت على منوال المعادلات الرياضية فكل هدف انسانى بحسب درجة الضرورة ووضوح الصورة الذهنية ، مع شدة التركيز ، هو طاقة تتحقق فى الخارج عند غياب الظروف المعاكسة .

ويدل وضع الطريقة بصيغة المعادلة الرياضية على ان الكتاب برنامج علم وعمل، وان المؤلف يرسم به « هندسة » قابلة للتعليم والتطبيق ، ويعامل فيه « الطاقة النفسية » كما تعامل كل طاقة لها هندستها العملية ، وفى وسع من يتعلمها ان يستقل بتطبيقها ويصل بها الى نتيجتها .

ومع ظهور الطابع الخاص للمؤلف فى كل رأى فاصل من آراء الكتاب يجرى نظامه على المنهج الدراسى التعليمى ويصلح للاعتماد عليه فى معهد الدراسة على يد كل معلم ولفائدة كل طالب ، لأن آراءه الفاصلة التى يظهر فيها طابع المؤلف تترتب على تفسيراته الراجحة عنده بمقدار مرجحاتها فى ميزانه ، ولا تتعرض لتغيير الوقائع أو تغيير نتائجها عند من يخالفه ، اذا شاء أن يفصل بين الواقعة وتفسيراتها وان يستخلص منها غير خلاصتها التى بدا من المؤلف انه يميل اليها .

ومما يساعد على حرية القارىء فى حالتى الموافقة والمخالفة أن المؤلف يعتمد على كثير من الوقائع والشواهد ولا يقيد أحكامه فى المسائل الحاسمة بواحدة منها تتوقف عليها ، فيجوز أن يختلف المؤرخون فى تصحيح بعض هذه الوقائع على حسب اسانيدها . ولكن النتيجة التى يربطها بها المؤلف لا تتوقف على صحتها ، لأنها نتيجة تثبت بغيرها من الوقائع التى لا خلاف عليها .

مثال ذلك ان المؤلف يقرر ان الارادة تعمل عملها فى تعويض الطاقة النفسية التى يفقدها الانسان بفقدان حاسة من حواسه أو عضو من أعضائه ، ويضرب المثل لذلك بنبوغ الشاعر هوميروس من جراء فقدان بصره وحاجته الى التكسب بتلاوة شعره .

فمن الجائز أن يشك المؤرخ فى عمى الشاعر هوميروس أو فى درجة هذا العمى أو درجة هذا الابصار على رواية أخرى ، وقد شك المؤرخون فعلا فى ذلك ورجح أكثرهم انه لم يوصف بالعمى فى غير الاسانيد التى نشأت بعد عصره بعشرة قرون ، ولكن الحقيقة النفسية التى قررها المؤلف لا تتوقف على رواية من هذه الروايات عن الشاعر اليونانى دون غيرها ، لأنها ثابتة من مئات الحوادث التى نشاهدها اليوم فى كل بيئة وفى كل عمل ، وما من « فقيه » ضرير فى زماننا الا وهو متكفل للقارىء بشاهد حى يغنى عن جميع الشواهد التاريخية ، لأنه لم يتعلم القراءة والكتابة ولكنه يحفظ القرآن والبردة ودلائل الخيرات وموشحات الاذكار والموالد ودعوات المواسم والمحافل ويسابق المبصرين فيكاد ان يسبقهم فى ميدانها .

والوقائع أو الشواهد ، تبلغ المئات خلال فصول الكتـــاب العشرة وتردد فى كل صفحة من صفحاته منسوبة الى مصادرها ، متبوعة بتعقيبات المؤلف عليها .

فالفصل الأولى بعد التمهيد موضوعه « نسبية المعرفة » مع تقدم العـــلوم الانسانية على حسب العصور المتتابعة ، ويتلوه الفصل الثانى فى التساؤل عن أثر التقدم العلمى فى سعادة الانسان أو فى صلاح قواه النفسية ، ويتلوه الفصل الثالث عن الكون وعمل المدارك الانسانية فى تقرير وجوده وتمحيص حقيقتـــه ، ويتلوه الفصل الرابع عن تطور العقل الانسانى وتمام هـــذا التطور بين الماضى والحاضر والمستقبل ، ويتلوه الفصل الخامس عن تكوين الانسان الذى جرت عليه هذه الاطوار ، ثم الفصل السادس عن موضوع يكاد أن يكون هو موضوع الكتاب كله وهو موضوع الارادة الانسانية ، ثم الفصل السابع عن الايمان وعمله فى الارادة وعمل الارادة فيه ، ثم الفصل الثامن عن تطبيقات قوة الايمان، ثم الفصل التاسع عن اثبات وجود الطاقة الانسانية بالطرق التجريبية العملية ، ثم الفصل العاشر وفيه شرح وافر لقانون الطاقة الانسانية ، ثم يختم الكتاب بتذييل ينتهى الى الطريق التى تمهدت للسلوك بعد كل هذه المقدمات وفحواه أن دراسة الطاقة الانسانية قد أسفرت عن أدراك الهدف وادراك الوسيلة اليه وادراك القدرة على تحصيله بهذه الوسيلة الناجعة ، وهى وسيلة المعرفة والايمان .

وقد استطاع المؤلف أن يقرر بالوسائل التجريبية أن الانسان لا يحلم بشىء فى الخيال يعجز عن تحقيقه فى صورته العملية ، وان الطاقة الانسانية تصـــنع المعجزات لتحقيق تلك الاحلام متى استعدت لها بعدة الارادة الصادقة وتمكنت من توجيه تلك الارادة الى هدفها على طريق السواء والهداية .

وللمؤلف جهد موفور فى البحث عن حقيقة الطاقة النفسية هل هى قوة قائمة بذاتها يمكن ان تنتقل من نفس الى نفس كما تنتقل قوة الحرارة من مادة الى مادة؟ أو هى قوة ايحائية يقوم تأثيرها الاكبر على الوحى الذى توحيه ارادة نفس ترسلها الى ارادة نفس تتلقاها ؟

ونمثل للفرضين بانسان ارسل من نفسه قوة الشفاء الى نفس انسان آخـر تتمنى شفاءه ، فهل يحدث الشفاء ــ اذا حدث ــ من طاقة نفسية تفعل فعلها سواء شعر المريض برغبة طبيبه أو لم يشعر بها ولا بوجود ذلك الطبيب ؟ أو يحـــدث الشفاء لأن الرغبة القوية من الطبيب أوحت الى المريض بما يعزز فيه رغبته ويبتعث منه كوامن صحته ويعينه على استنهاض عزيمته ، فلا يتم الشفاء بغير هذا الايحاء ؟

ان المؤلف يميل الى الرأى الأول ويستشهد ببعض تجاربه فى طفولتـه وفى حاضره ، فيرى أنه مقتنع بأن الطاقة النفسية يمكن ان تفعل فعلها على غير علم من المستفيد بها أو المصاب بضررها .

وباب الفصل بين الرأيين لا يزال مفتوحا للباحثين من أصحاب النظرة العلمية التجريبية وأصحاب النظرة الصوفية الباطنية ، ولكن المباحث النفسية فى العصر الحديث تأبى ان تتجاهل النتائج العلمية التى اسفرت عنها تجارب الانسان قبل اليوم فى المعمل والمعبد على السواء ، فلا يسلك الباحثون عن حقيقة الطاقة النفسية مسلكا يرفضه العالم الذى يجرى تجاربه على الطاقة المــــادية والحركة الآلية ، ولا يحاول النفسانيون والرياضيون على النهج الحديث اقناعا للعقل والضمير بغير البرهان المفهوم الذى يوضع موضع التطبيق والتكرار ، وان كانوا ــ باعترافهم ــ لم يجاوزوا به أوائل الخطوات من عتبة الطريق الى منتصف الطريق ٠

فمن المدارس العصرية التى تبحث عن أسرار طاقة النفس مدرستان كبريان : احداهما أقرب الى العلم والفلســـفة العقلية وهى مدرســــة « الباراسيكولوجى » أو علم النفس المشابه ٠

والاخرى أقرب الى الفن والرياضة الصوفية ، ويجوز أن تحســـب من فروع « الثيوسوفية » الحديثة لانها لا تتقيد بتجربة الواقع كمـــا تتقيد بالملهمـــات الوجــــدانية ٠

فعلماء « الباراسيكولوجى » يبحثون فى انتقال المشاهدات والمؤثرات بغـــير وساطة الحواس ويقررون ان الظواهر التى جربوها لا تقبل التفســير بالفروض المعهودة وان الامانة العلمية تتقاضاهم ان يثابروا على تجربتهم الى ان يهتدوا الى تفسير مطابق للعلم وللواقع غير تلك الفروض المعهودة، وهم حريصون على اجتناب الخلط بين مشاهدات النجوى على البعد أو التلباثية ومشــــاهدات الكشـــف والاستجلاء أو « الكلارفيانس » ولم يمض على نشأة هذه المدرسة بجامعة ديوك ثلث قرن الى الآن ، لأنها نشأت فى سنة ١٩٣٠ ، ولكنها استطاعت ان تثبت وجود الصلة النفسية بغير وساطة الحواس فى نســـبة لا تقل عن أربعين فى المائة ، ولايتيسر تفسيرها بوسيلة من وسائل الانتقال تغنى عن القول باحتمال التأثـــير المباشر من نفس انسانية الى أخرى ، وان تكن عوامل هذا التأثير مجهولة الى الآن ٠

أما المدرسة الأخرى فاعتقادها الغالب أن المادة قابلة للتأثر بالعوامل النفسية كما تتأثر بعوامل الضوء والحرارة والمغناطيسية ، أو بعوامل الطاقة المـــادية على عمومها ، وقاعدة التفكير على هذا النحو عندهم أن الموجودات فى الكون ترجع كلها الى الذرات ، وان ذرات العناصر كلها ترجع الى أشعة من النور ، وان تركيبها أشبه شىء « بالتنغيم » على النسب الموسيقية ، فمن شأن النفس التى تناسبت موسيقاها وتناسقت ملكاتها أن تنقل بوسيلة النسب الموسيقية قوة تعمل عملها فى تعديل الاشعة وتقويم حركاتها ، وقد زعم الثيوسوفيون من مدرســـــة « أنا بيزانتى » وخلفائها ان تركيب صخور الاهرام بعضها على بعض مستحيل بغير الاعتماد على

المغناطيسية النفسية الى جانب الاعتماد على الآلات ، لان وضع الصخرة على الصخرة بأحدث الآلات فى العصر الحاضر لا يتأتى بغير فراغ بين الصخرتين يتسع لجسم فى عرض الشعرات الحيوانية ، ولم يكن بين صخور الاهرام التى بقيت على حالها متسع لمثل ذلك الفراغ ·

وسيمضى البحث على كلتا الطريقتين زمنا لا ندرى مداه ، وقد يثبت وجـــود الطاقة النفسية مستقلة عن الايحاء أو مقرونة به على درجات ، ولكن الدراسة التى تعمل الآن فى توجيه الطاقة النفسية ويشرحها الأستاذ أحمد حســـين فى كتابه لا تنتظر النتيجة ولا تتوقف عليها ، وكذلك يبحث العلمـــاء اليوم عن الضوء هل هو موجات أو ذرات ويقولون بأحد القولين أو بالقولـــين معا فى بعض الظواهر ، ولكن المخترعات التى تنشر الضوء وتحفظه وتتحكم فى الانارة والاطفاء ماضية فى تقدمها وتعميم فوائدها دون أن يعوقها عن مداها ان نحسبها بحســـاب الامواج أو بحساب الدقائق الصغار ، وهى على هـــذا الغموض فى تركيبها أجلى ما تجلوه الانظـــار ·

(انتهى ــ قافلة الزيت عدد اكتوبر سنة ١٩٦٢)